

مقياس: العمران والمركز الحضارية/ ماستر 1 وسيط/أ. مطهري

المحور الأول: مدخل إلى العمران الإسلامي (مفهوم المدينة والمصطلحات المشابهة والمضادة):

المحاضرة الأولى- ماهية المدينة العربية الإسلامية

أولاً- تعريف المدينة:

مما لا شك فيه أن المدينة هي نتاج الاجتماع البشري وثمره التدبير والفكر الانساني الذي لا يمكن أن ينضب في تجده وابداعه، فلفظ المدينة له دلالات متعددة، ولاستنتاج مفهوم شامل يجب علينا معرفة مفهومها اللغوي والاصطلاحي، وسنحاول تحديد مفهوم المدينة من حيث أنها فضاء جغرافي ومن حيث علاقة ذلك بالموضع ومن حيث الوظائف المتعددة وعلاقتها بالأهداف المرسومة لهذه المدينة ودورها الحيوي في مختلف المجالات و المظاهر الحضارية.

1- المفهوم اللغوي

المدينة عند ابن منظور مدن بالمكان أي أقام فيه، و منه المدينة، و قيل هي من دنت أي ملكت ونقل عن الفسوي قوله: "هي من قولك مدن بالمكان، أي أقام به"، ثم قال: "والمدينة الحصن تبنى في أصطمة الأرض - أي وسطها- وكل أرض يبني بها حصن في أسطمتها فهي مدينة، و الجمع مدائن ومدن"¹.

وهناك معنى آخر مأخوذ من معنى مدّن في المكان أي أقام به أو أن معنى مدّن المدائن أي مصّرّها²، ومن هنا يظهر المعنى الأخير للمدينة بوصفها مكان استقرار³ للصناعة وإنشاء عمارة وبيوت⁴،

¹ - ابن منظور: لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان 1994، ج13، ص402، مصطفى عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة و تطور المدن العربية الاسلامية، دار الرشيد للنشر، العراق، 1982، ص15.

² - المصر: هو كل بلد جامع تقام فيه الحدود و يحله أمير و يقوم بنفقتة و بجمع رستاقه، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة لندن، 1906، ص47، أي أن المصر هو ذلك المكان الذي يوجد فيه سلطان يقيم الحدود و قاض ينفذ الأحكام، عبد الجبار ناجي: مفهوم العرب للمدينة الاسلامية، مجلة المدن العربية، نشر المنظمة العربية للمدن، العدد 14، السنة 3 1984، ص53، محمد جمال الدين القاسمي: اصلاح المساجد من ابدع و العوائد، نشر المكتب الاسلامي،

وهذا ما تدل عليه الآية الكريمة ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾⁵، أي أذن لكم في عمارتها وجعلكم عمارا تعمرونها و تستغلونها⁶، وكلفكم بعمارها بالحق والعدل والعمل الصالح⁷، وعمارة المكان هي أن يصبح مسكونا أو مستقرا أو مزروعا، أي عامرا بالناس والحيوانات والنبات، فيصبح بحالة حسنة، وهو شيء يخالف الفقر و الضياع و الخراب، و يشمل ذلك الزراعة أو البناء أو الأشياء⁸.

وقد أشار البحث اللغوي إلى أن كلمة "مدينة" ترجع أصلا إلى كلمة دين، و أن لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلا في اللغتين الآرامية و العبرية و تعني "القاضي" وإضافة إلى ذلك فإن مصدرها في الآرامية "مدينتنا" و تعني القضاء و هذا ما يتوافق مع الحديث الشريف عن جابر بن عبد الله عن الرسول صلى الله عليه و سلم قال: "يوم يحشر العباد - أو قال الناس- حفاة عراة عزلا ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما سمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أفضه منه"، وفي حديث آخر عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: "يأخذ الديان سماوته وأراضيه بيده"⁹، ويتفق معنى الحديث اشتقاق

ط4، 1399هـ، ص- ص 49- 54، وجاء في القرآن بمعنى البلد ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾، البقرة، الآية 61، و المراد البلد أي مصر من الأمصار و ليس مصر فرعون، ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن الكريم، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006، ص101.

³ - استنقرار: مشتق من قر، يقر، قرارا، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾، سورة غافر، الآية 64، أي مستقرا، أبو القاسم الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرف، بيروت، د.ت، ص64.

⁴ - مصطفى شاكر: المدن في العالم حتى العصر العثماني، ط1، الكويت، 1988، ص30.

⁵ - سورة هود: الآية 61.

⁶ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، المجلد3، دار الكتب العلمية، محمد علي بيضون، ط2، بيروت، لبنان، 2006، ص425.

⁷ - محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، ط1، سوريا، 1984، ص26، أبو القاسم الزمخشري: الكشاف المصدر السابق، ص85.

⁸ - سعيد محمد رعد: العمران في مقدمة بن خلدون، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، ط1، سوريا، دمشق، 1985، ص522.

⁹ - محمد عبد الستار عثمان: الديانة الإسلامية، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة 1999، ص17، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، يناير، 1978، ص15.

الكلمة من الدين والملك والقضاء، وهذا ما نجده في بعض المعاجم العربية من أن كلمة مدينة ترجع إلى كلمة دين وهي مشتقة من كلمة "ودنته" وتعني ملكته فهو مدين مملوك¹⁰.

وقد وردت المدينة في القرآن الكريم بمدلولها الجغرافي أي البلد في أكثر من موضع، فمثلا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ فِي الْمَدِينَةِ تَسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾¹¹، أي مدينة ثمود و قوم نبي الله صالح عليه السلام، و قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾¹²، أي مدينة مصر، وفي سورة يس جاءت الآية الكريمة: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَفْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾¹³، كما وردت بمعنى بلدة مثل الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾¹⁴، و وردت أيضا بمعناها القرية، مثل الآية الكريمة: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾¹⁵، و قيل هي مدينة أنطاكية¹⁶، كما وردت بلفظ الأرض في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾¹⁷، أي الأرض المطهرة، وقيل الطور و ما حوله أو أريحاء و المراد بها أرض بيت المقدس¹⁸ و يقول عبد الباقي ابراهيم: "و جاء في معظم ألفاظ القرآن الكريم الذي أصدره المجمع اللغوي بالقاهرة، و تكرر ذكر المدينة في القرآن الكريم مرادا بها في جملتها مدينة معينة...و على هذا يمكن أن نعرف المدينة في الاسلام بأنها المكان الذي تستوفى فيه أسباب العدل و الأمن أكثر من أي مكان آخر لكونها المقر المركزي للسلطة الحاكمة، سواء الخليفة في الدولة أو الوالي في الأقاليم"¹⁹.

2- المفهوم الاصطلاحي

¹⁰ - محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية، المرجع السابق، ص16.

¹¹ - سورة النمل، الآية 48.

¹² - سورة القصص، الآية 15.

¹³ - سورة يس، الآية 20.

¹⁴ - سورة النمل، الآية 91.

¹⁵ - سورة يس، الآية 13.

¹⁶ - ابن كثير: تفسير القرآن، المصدر السابق، ص528.

¹⁷ - سورة المائدة، الآية 21.

¹⁸ - ابن كثير: المصدر السابق، م2، ص 37-38.

¹⁹ - عبد الباقي ابراهيم: المنظور الاسلامي للتنمية العمرانية، مركز الدراسات التخطيطية و المعمارية، مصر الجديدة، د.ت، ص76-77، محمد بن حمو: العمران و العمارة عند بعض المفكرين المسلمين، مجلة القرطاس الحضاري للدراسات الحضارية والفكرية، نشر ابن خلدون، تلمسان، العدد1، سنة2012، ص61.

تعددت مفاهيم المدينة بمعناها الاصطلاحي باعتبارها خلاصة تاريخ الحياة الحضرية وهي النظرة إلى الآتي، وهي التقليد الحضاري، و الكتابة على الأرض، و ابقاء الأثر الشاهد على الماضي والحاضر والمستقبل معاً، و بالتالي شهادة التاريخ²⁰، فهي أصدق تعبير لانعكاس ثقافة الشعوب وتطور الأمم وهي مؤول الحضارة وحاضنتها حيث نشأت في كنفها فنون الانسانية و آدابها، كما تعبر عن صورة كفاح الانسان وانتصاراته وانهزاماته²¹.

فقد شبّهت المدينة بالكائن الحي، فهي كائن حي تتحول و تتجدد مبانيتها، و تتوسع على ضواحيها، فالعديد من المدن الحديثة نشأت من نواة تاريخية تطورت حسب إرادة الانسان و عوائق الزمن، وهي نتاج سلسلة من التدخلات و الانشاءات العمرانية عبر فترات مختلفة، اذ يعبر مركزها القديم اليوم عن هويتها من خلال تراثه المتنوع، و المتكون من عدة مبان شاهدة على التطور العمراني للمدينة، والتي تمثل معالم تاريخية و أثرية و فنية و جمالية²²، فدراسة تاريخ المدن لا تتفصل عن دراسة التطور البشري، و هناك تشابه بين نشاط المدينة و تاريخ تطورها، و بين نشأة الانسان و تطور نشاطاته، فالمدينة وجدت بوجود الانسان الذي خططها و شيدها، و تدمر كذلك بفعل الانسان، فازدهارها و توسعها أو انكسارها وتفككها مرتبط بشكل متين بأوضاع سكانها و حياتهم، و كلما ازدهرت مجموعة بشرية خطت مراحل هامة في تقدمها و جسدت ذلك في بناء مدن عظيمة زاخرة و متطورة.

ويعكس تدهور تلك المدن ظاهرة تراجع المجموعات البشرية و تخلفها و انكسارها، و قد نجد التشابه حتى فيما يتصل ببعض الخصائص النفسية من سعادة و شقاء، و ازدهار و انكماش، و قوة وضعف²³.

فالمدينة تشبه الكائن الحي من حيث النمو و التطور حيث تستمد نشاطها من موقعها و ما يحيط به، فهي كيان قائم بذاته كالكتاب المفتوح يعبر عن كل مرحلة من مراحل تاريخها، تحمل آثار ازدهارها

²⁰ - محمد عبد الصمد رزار و عبد المالك تشريفت: مدينة شرشال تراث تاريخي عالميا و ذاكرة الجزائر، حوليات التاريخ والجغرافيا، الملتقى الوطني الثالث حول المدن الجزائرية عبر العصور، مخبر التاريخ و الحضارة و الجغرافيا التطبيقية، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة العدد 5، جوان 2012، ص 82.

²¹ - عبد الحميد بعطيش: ملامح المدن النوميديّة، حوليات التاريخ و الجغرافيا، المرجع السابق، ص 12.

²² - محمد عبد الصمد رزار، عبد المالك تشريفت: مدينة شرشال، المرجع نفسه، ص 82.

²³ - كلثوم ميدان: التطور العمراني في مدينة الجزائر، حوليات التاريخ و الجغرافيا، المرجع نفسه، ص 259 - 260.

وانحطاطها، أو كالشجرة تحمل آثار ازدهارها و انحطاطها و حتى أطلالها²⁴، فهي اذن كالحضارة عند أرفالد شبنجلر (1888-1936م) الذي اكتفى بتفسيرها بتفسيرها بيولوجيا²⁵، فإنها تمر بنفس الأدوار التي يمر بها الإنسان من طفولة وشباب ورشد وشيخوخة، ففي دور الشباب تتوفر القوة والإبداع ثم تظهر عليها علامات الشيخوخة فتسقط وتموت²⁶، فيغدوا حال الحضارة كحال غابة عملاقة جفة أغصانها والتوت أعناقها، وهذا ما نشاهده في بقايا وأطلال تلك الحضارات العملاقة كحضارة الفرس والروم والهند²⁷، وليس معنى هذا فناء الحضارة فناء نهائيا، بل تبقى قادرة على البقاء والاستمرار، فتكون كالشجرة التي استنفذت أغصانها أوراقها، ثم لا زالت تدب داخل عروقها مياه الحياة²⁸، فالمدينة اذن هي المكان المميز للتاريخ، وهي خلاصة تاريخ الحياة الحضرية، وهي الكائن وهي الناس والنقل والتنقل والتجارة والفن والعمارة والحكومة والسياسة والعلم والثقافة، وهي صورة للقوة و السلطة والمال²⁹.

وهناك من يرى أن المدينة هي مركز تجمع بشري، فهي للسكان وليست فقط للحكام، كما هي أماكن للسكن والعمل والحركة والترفيه، وأن التقدم الحضاري فيها لا يقاس بالأبنية الشاهقة والضخامة وتطورها التقني فحسب وإنما من خلال قياس درجة النفع والشمولية بالنسبة لسكان المدينة³⁰. وهي أيضا كيان مادي وموضوعي واجتماعي حيث تجذب و تستقبل السكان و تشبع حاجياتهم بفضل انتاجها و تجارتها و تجهيزاتها، فهي المكان الذي تتم فيه الاتصالات المتنوعة، وبفضلها يتحقق الترابط بين المجال الذي تشغله و المجال الواقع تحت سيطرته³¹.

²⁴ - نبيل سليمان: إعادة بث مدينة قسنطينة و دورها التاريخي كعاصمة للشرق الجزائري، حوليات التاريخ و الجغرافي، نفسه، ص350.

²⁵ - عبد الرحمن بدوي: شبنجلر، دار القلم، الكويت، 1982، ص34.

²⁶ - نعمان عبد الرازق السامرائي: في التفسير الإسلامي للتاريخ، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د.ت، ص123.

²⁷ - أرفالد شبنجلر: تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1964، ص218.

²⁸ - عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص103.

²⁹ - فوزي بودقة: المدينة تطور رهانات و تحديات، حوليات التاريخ، المرجع السابق، ص391.

³⁰ - سعيدة مفتاح: تأثير الحضارات القديمة في التخطيط العمراني للمدن، آراء و دراسات في التاريخ و الآثار القديمة، أشغال الندوة العلمية المنعقدة في المدرسة العليا، بوزريعة، الجزائر، 23 / 24 / 2012، ص296، علي كريم العمار: مفهوم الادارة الحضرية في فلسفة الحضارات القديمة و الفكر المعاصر، بحث بالمعهد العالي للتخطيط الحضاري و الاقليمي، جامعة بلغراد، 2007، ص- ص 3- 6.

³¹ - عمر زيداني: رهانات التنقل داخل المدينة، حوليات التاريخ، المرجع السابق، ص408.

ويعرفها رالف لنتون على أنها جماعة تعيش على مبادلة المنتجات المصنوعة و الخدمات اللازمة للحصول على الطعام والمواد الخام اللازمة لهم من المناطق القريبة جدا منهم، وكثيرا ما تتطور القرية إلى مدينة في خطوات لا يكاد يشعر بها أحد³²، وهذا ما نلاحظه في تطور المدينة المنورة التي انتقلت من مجرد قرى متباعدة عند نشأتها إلى أن أضحت مدينة منظمة يرتكز في وسطها المسجد النبوي الشريف و بيته باعتباره دارا للحاكم و أيضا الأسواق³³.

إن مفكري الاسلام و منهم القزويني و ابن أبي الربيع و ابن خلدون و ابن الأزرق وضحو المعنى الاصطلاحي للمدينة و أكدوا على أن الاجتماع الانساني ضرورة تقتضيها الطبيعة البشرية بحكم ضرورة الغذاء و اللباس و المسكن و الدفاع عن النفس من خطر الحيوانات و غيرها³⁴، و في هذا الصدد يقولون، أعلم أن الله عز و جل خلق الانسان على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده كسائر الحيوانات، لأن الله تعالى خلقه بطبع يميل إلى الاجتماع و الأانس³⁵، و قد عبر ابن خلدون عن ذلك في الباب الأول من المقدمة بقوله: "إن الاجتماع الانساني ضروري" و يعبر الحكماء عن هذا بقولهم: "الانسان مدني بالطبع"³⁶ أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم و هو معنى العمران³⁷، إلا أن المدينة عند اللغويين مشتقة من لفظ تمدن الرجل أي هي صفة اكتسابية تظهر في سلوك الشخص، و هي وليدة التربية و التهذيب، أي التخلق بسلوك مهذب و جميع ما هو ضد الوحشية و الهمجية، أما العمران فهو وليد العلم و الاختراع و هو جزء من الحضارة يضم أنظمة جماعية و اختراعات مادية محسوسة³⁸، و قد اعتبر بن خلدون العضو البشري أساس الاجتماع الانساني، و بالتالي اعتمار و عمران العالم³⁹، و

³² - رالف لنتون: شجرة الحضارة، تقديم محمد سويدي، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ج1، ص 241-242.

³³ - سعيدة مفتاح: مآثر تشريع المخططات العمرانية للمدينة العربية الاسلامية، مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد 2، السداسي الأول 2013، ص32.

³⁴ - محمد بن حمو: العمران و العمارة عند بعض المفكرين المسلمين، مجلة القرطاس الحضاري، المرجع السابق، ص61.

³⁵ - الأانس و ذلك أن الانسان إنسي، محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية، مجلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب الكويت، يناير 1978، ص- ص 50-151.

³⁶ - القزويني: آثار البلاد و أخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، 1988، ص 150-151.

³⁷ - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 2007.

³⁸ - محمد عبد الكريم الجزائري: الثقافة و مآسي رجالها، شركة الشهاب، الجزائر، د.ت، ص 40-41.

³⁹ - سعيد محمد رعد: العمران في مقدمة ابن خلدون، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، ط1، دمشق سوريا، 1985، ص57.

هذا ينطبق أيضا على المدن، فالقاعدة المعروفة مفادها أن أية مدينة لا يمكن أن تكتفي ذاتيا، من بالضرورة جدا و لكونه من مقومات وجودها واستمرارها هو تبادل المنافع بينها و بين اقليمها⁴⁰ أي تبادل السلع و الصنائع بين المدينة و بين القرى المتناثرة حولها، و هذا ما جعل رالف لينتون يشبه تصميم المدينة العام بتصميم الخلية فيقول: "أن سرّة المدينة ليست إلا نواة لها أما القرى المتناثرة حولها و التي تحيط بها فهي مثل بروتوبلازم (المادة الزلزالية التي تحيط بالخلية) مع بعض الطرق هنا وهناك لتوصل تلك المدينة بموارد المواد الخام الضرورية لها"⁴¹.

ورغم أنّ المدن تعد ظاهرة قديمة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد إلا أنّ عددها في تزايد مطور لارتباطه بتطور ظاهرة التحضر، التي عملت على نقل المجتمع من عالم الرّيف إلى عالم الحضر⁴²، فالتحضر يطلق على عملية التوسع من حيث المراحل و العمليات المتسلسلة و الآليات و التحولات المرتبطة بتلك الظاهرة⁴³، فقد نظر ابن خلدون إلى الناس في زمانه فوجدهم مستقطين في فئتين، هما: أهل البدو والحضر، ورأى صفات إحداهما مخالفة للأخرى، فتساءل عن سر هذا الاختلاف، وراح يستنبط قوانين التطور التحول في الأمم و الدول⁴⁴. ويرى أن الحضارة غاية البداوة⁴⁵، فطور الدولة من أولها بدواة، ثم إذا حصل المال تبعه الرّفه و اتساع الأحوال و الحضارة، و الحضارة إنما تنمو في الترف⁴⁶، وهذا ما يظهر لنا جليا في الوقت الحالي فمدن العالم و خاصة العالم الثالث تعرف نموا في عدد سكان الحضر – الحواضر⁴⁷.

40- صبري فارس الهيتي: جغرافية المدن، دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2002، ص14.

41- رالف لنتون: شجرة الحضارة، المرجع السابق، ص243.

42- الحضر أي الإقامة في المدن، أو الاستمرار في الاستقرار في المدن و القرى، سليمان الخطيب: أسس مفهوم الحضارة في الاسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص25، عبد الرحمن علي حجي: أضواء على الحضارة والتراث، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص67، محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها، دار الوفاء للطباعة والنشر و التوزيع، ط1، 1991، ص61.

43- صبري فارس الهيتي: التخطيط الحضري، دار البازوري العلمية للنشر و التوزيع، عمان، الأردن 2009، ص35، محمد علوات، فوزي بودقة: المدينة الحاضرة، آراء و مفاهيم، حوليات التاريخ و الجغرافيا، المرجع السابق، ص92.

44- علي الوردي: منطق بن خلدون في حضارته و شخصيته، مطبعة جامعة الدول العربية- معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، 1992، ص77.

45- ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 275- 276.

46- الصغير بن عمار: الفكر العلمي عند بن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، الجزائر، 1984، ص48.

47- محمد علوات، فوزي بودقة: المدينة الحاضرة، آراء و مفاهيم، المرجع السابق، ص92.

إن معاني المدينة الاصطلاحية عديدة و لها علاقة متشابكة ببعض المصطلحات الأخرى كالمدينة والعمران والحضارة والحضر والثقافة، فكما ربط ابن خلدون والحكماء المدينة بضرورة الاجتماع الانساني الذي هو المدنية و العمران، فهناك من ذكر أن لفظ الحضارة مشتق من الكلمة اللاتينية CIVIS بمعنى المدينة أو CIVILIS بمعنى مدني أو متعلق بالمدينة⁴⁸.

وإن كانت الحواضر قديمة النشأة فقد تطور مفهومها بتطور الحياة العامة للبشر، فمنذ فجر التاريخ وجدت المدن المترابولية كمدينة "أور"⁴⁹ التي تعد أقدم المدن نشأة في العالم، و كانت تشغل مساحة 89 هكتارا عندما بلغت أوج مجدها عام 210 ق.م و "أور" في اللغة السومرية تعني مدينة، و مدينة بابل⁵⁰، ومدينة نينوى⁵¹ و نمرود التي أقامها آشور بانيبال (883-859 ق.م) على مساحة 360 هكتارا و روما وغيرها، فمدن الميترابول القديمة كانت الاستثناء و ليس القاعدة من حيث قلة عددها بين المدن القديمة⁵².

فالمدينة الحاضرة⁵³ (anetropole) حسب فكرمان E.Wackermann يتم فيها استحداث أنشطة بفضلها تتمكن دوليا دون باقي الأنشطة الأخرى، و بفقدانها لهذه الأنشطة المستحدثة تفقد شخصيتها⁵⁴، إذن هي المدينة الأم، المدينة الأولى في البلاد، و هي مدينة يتوفر فيها كل شيء، هي شكل من أشكال العمران، يرتكز كغيره من المدن على نواة رئيسية ذات حجم كبير، يعتبر الوزن الديمغرافي أول مميزاتها، و هي أيضا حركة تركز اقتصادي و مالي، ترافقها عملية تنظم التجمعات

⁴⁸ - محمد عبد الكريم الجزائري: المرجع السابق، ص67، الموقع الالكتروني:

<http://fr.wikipedia.org/wiki/civilisation>.

⁴⁹ - أحمد علي اسماعيل: دراسة في جغرافية المدن، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 2005، ص44.

⁵⁰ - بابل الكلدانية و حدائقها المعلقة مثلت المنهجية التخطيطية و النسق الجمالي، و قد أخذت صورتها النهائية في عهد نيوخد نصر الثاني (604-561 ق.م)، السيد الحسيني: المدينة، دراسة في علم الاجتماع الحضري، ط1، القاهرة، 1994-1995، ص109.

⁵¹ - نينوى: أقامها ستحاريب (704-561 ق.م) على مساحة 7295 هكتارا، السيد الحسيني: المرجع نفسه، ص نفسها، سعيدة مفتاح، تأثير الحضارات القديمة في التخطيط العمراني للمدن، الندوة العلمية المنعقدة بالمدرسة العليا، الجزائر، المرجع السابق، ص296.

⁵² - فوزي بودقة: تحليل الظواهر العمرانية بمدينة الجزائر و مجالها الميترابولي، المرجع السابق، ص12.

⁵³ - الحاضرة عند ابن منظور هي خلاف البادية و هي المدن و القرى، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار و مساكن الديار التي كان لهم بها قرار، ابن منظور: المصدر السابق، ص4، ص148-149.

⁵⁴ - G.Wackermann, Geographie urbaine, edition ellipses, France 2000, p168.

الحضرية⁵⁵، و هذه الميزة تسمح لها بمساعدة المدن المحيطة للتحكم في هيكلية المجال و حركة السكان وحتى التقارب والتبادل مع المدن المحيطة⁵⁶، إن الحاضرة بمفهومها المعاصر هي عواصم المدن، تمثل العواصم السياسية و الادارية للدول، وتعرف بالمدن المليونية حيث يفوق عدد سكانها المليون نسمة وهي تتميز عن باقي التجمعات الحضرية بجمعها بين الخصائص الثلاثة التالية:

-الخاصية الادارية أو التوجيهية (Directionalité)

-خاصية الشمولية (Globalité)

-خاصية الارتباط⁵⁷(Connectivité)

فبازدياد حجم المدن، بات منها الصغيرة و المتوسطة و الكبيرة و الحواضر الكبرى (Metropoles) والمدن العملاقة (Megalopoles) انتظم بعضها تلقائيا دون خطط محددة، واتبع البعض الآخر خطط ضمن أنظمة حضرية أكثر تنظيما و أصبح بذلك للمدينة دور فعال في هيكلية الفضاء⁵⁸ Structuration de l'espace.

و لا شك أن المدن قد تتشابه في نموها، و لكن لكل مدينة نكتتها و مميزاتها الخاصة في نشأتها ومراحل تطورها: ماضيها، موقعها و موضعها، و حجمها المساحي و السكاني خصائصها الوظيفية، تراثها الثقافي، أدائها الاقتصادي- الاجتماعي و إدارتها و تسييرها⁵⁹، نظرا لاختلاف طبيعة و وظائف المدن و كذا اختلاف حجم سكانها أصبح من الصعب الخروج بتعريف موحد للمدينة، وأحسن ما يمكن وصف المدينة به أنها: "مستوطن أو محلة يعيش فيه مجتمع مستقر غالبا ما يكون ضخم العدد، كما أن كثافته مرتفعة، و لا يعتمد كل أفرادها أو معظمهم في رزقهم على الزراعة، و هو في نشاط رائع و له علاقات خارجية و على درجة عالية من التنظيم⁶⁰.

⁵⁵ - Vhervouet, la periurbanisation dans la metropole nantaise, université de nante, France, 2005, p15.

⁵⁶ - Jean- François Tron, du bon usage du terre metropole notamment dans le monde arabe, revue de journal du méditerranée, France 2000, p3.

⁵⁷ - G.Wackermann, op.cit, p- p 168- 169.

⁵⁸ - محمد علوات، فوزي بودقة: المدينة الحاضرة، حوليات التاريخ و الجغرافيا، العدد4، المرجع السابق، ص89.

⁵⁹ - فوزي بودقة: تحليل الظواهر بمدينة الجزائر ومجالها الميتروبولي، رسالة دكتوراه، دولة، جامعة هواري بومدين، الجزائر، 2006، ص20.

⁶⁰ - محمد علوات، فوزي بودقة: المدينة الحاضرة، آراء و مفاهيم، حوليات التاريخ و الجغرافيا، مخبر التاريخ و الحضارة و الجغرافيا التطبيقية بالمدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة الجزائر، العدد 4، 2011، ص91.

ويبقى تعريف كل من "أرسطو" بأنها "سكن لأكبر عدد ممكن، توفر له حاجات حياته" ولرالف لنتون: "بأنها جماعة تعتمد في حياتها قبل أي شيء آخر على التجارة و تبادل الخدمات اللازمة للحصول على الطعام وما يلزمها من المواد الخام" صحيحا ولا يزال معقولا على وجه العموم⁶¹.

المحاضرة الثانية: مصطلحات ذات الصلة بالمدينة والعمران

ثانيا- مفهوم مصطلحي العمران والعمارة:

1- مفهوم العمران: لتحديد معاني مصطلح العمران علينا أن نستعرض معنييه اللغوي و الاصطلاحي:

أ - لغة:

العمران: العمائر: جمع عمارة أو عمارة، أي عمارة الأرض، و هي فوق البطن من القبائل أولها الشعب ثم القبيلة ثم البطن ثم الفخذ⁶². و تعني أيضا السكن في موطن ما بصورة دائمة، و العمل على إقامة بنيان هذا السكن و تأهيله، و العمل على تقدمه و ازدهاره⁶³.

وأصل كلمة عمران "عمر" التي تعني إما: أ - أن يعيش أو يسكن أو يقطن أو يستقر فيبقى في مكان ما.

ب - أن يصبح مسكونا أو مستقرا أو مزروعا، أي عامرا بالناس و الحيوانات و النبات، فيصبح بحالة حسنة، و هو شيء يخالف الفقر و الضياع و الخراب. ج - الزراعة أو البناء أو الأشياء⁶⁴.

ب - اصطلاحا: أما مفهوم العمران الإصطلاحي، فسنركز على ما ذكره بن خلدون، فمحمد رعد يقول عن كتاب العبر:

"وإنما هو على الأكثر عنوانا لمحاولة جريئة علمية تضع العمران كعلم في مقدمة العلوم الطلائعية، فيجعل العالم في مسيرته التاريخية قائما عليه كنظام عالمي يستند في الأساس على الفكر و الحس

⁶¹ - رالف لنتون : شبنجلر، المرجع السابق، ص243.

⁶² - ابن منظور : المصدر السابق، الجزء 4، ص280

⁶³ - سعيد محمد رعد : العمران في مقدمة بن خلدون، دار طلاس للدراسات و الترجمات و النشر، ط1، سوريا،

دمشق، 1985، ص27.

⁶⁴ - نفسه، ص522.

السليم، و يقوم على التجربة و هي تجارب الأمم في غابر حياتها و حاضرها... إن تاريخ ابن خلدون الكبير مع "المقدمة"، يصلح أن يكون مدخلا للكتابة عن العمران، إذ استطاع أن يمهد السبيل لنشر أفكاره و تعميمها عن طريق التاريخ⁶⁵.

فعنوان المؤلف الذي ابتدأه بـ"العبر"، يعني ما استخلصه أو يجب أن يستخلصه كل من أراد أن يتابع آراءه في تحديد معاني العمران، و هو ما اصطلح على الرمز إليه بـ"المبتدأ" لأنه قديم قدم الخليفة، و بعد ذلك وجد أن ليس هناك فن اجل و أفضل من "التاريخ" الذي سماه "الخبر"، وهو من ألصق الأمور بـ"المبتدأ"، فأصبح العنوان بذلك يعني ما يحصل عليه الإنسان و المجتمع البدوي و الحضري في أدوار ترقيه عبر التاريخ، وهو ما اصطلح عليه ابن خلدون لكلمة "العمران"⁶⁶.

و يعرف ابن خلدون العمران بما يلي: "و هو التساكن و التنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش، و من هذا العمران ما يكون بدويا و هو الذي يكون في الضواحي و الجبال و القفار و أطراف الرمال، و منه ما يكون حضريا، و هو الذي بالأمصار و القرى والمدن..."⁶⁷.

و يجعل ابن خلدون للعمران عمرا محسوسا كالأشخاص بقوله: "و العمران كله من بداوة و حضارة و ملك و سوقة "الرعية" له عمر محسوس، كما أن للشخص عمرا محسوسا، وتبين في المعقول و المنقول أن الأربعين سنة للإنسان غاية في تزايد قواه و نموها". كما يربط ابن خلدون العمران بـ"المدنية" في الباب الأول من "المقدمة": "...أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: (الإنسان مدني بالطبع) أي لا بد له من الاجتماع الذي هو "المدنية" في اصطلاحهم وهو معنى العمران⁶⁸. إلا أن المدنية عند اللغويين مشتقة من لفظ تمدن الرجل أي هي صفة اكتسابية تظهر في سلوك الشخص، وهي وليدة التربية و التهذيب، أي التخلق بسلوك مهذب وجميع ما هو ضد الوحشية و الهمجية، أما العمران فهو وليد العلم والاختراع وهو جزءاً من الحضارة يضم أنظمة جماعية و اختراعات مادية

⁶⁵ - سعيد محمد رعد: المصدر السابق، ص- ص 12- 13.

⁶⁶ - عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة، المصدر السابق، ص58.

⁶⁷ - نفسه، ص56.

⁶⁸ - نفسه، ص57.

محسوسة⁶⁹. و يعطي بن خلدون الإنسان الدور الأول في مفهومه للنظرية العمرانية، حيث اعتبر العضو البشري أساس الاجتماع الإنساني، وبالتالي اعتمار و عمران العالم⁷⁰.

إن ابن خلدون استعمل مصطلح العمران للتعبير عن الاجتماع البشري و نتاجه، كما استعمل علم العمران مشيراً إلى دراسة ظواهر هذا الاجتماع⁷¹.

يرتكز العمران على ثلاث قواعد أساسية أو أصول عامة و هي:

أولها: المكان الذي يتسنى للناس الإقامة فيه و الاستقرار و السكنى.

ثانيها: الاجتماع الإنساني، أي اجتماع الإنسان و تعاونه مع غيره و هي من طبائع العمران، و هنا يقول ابن خلدون: "أعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الذي هو عمران العالم..."⁷².

ثالثها: العمل الذي لا يتم إلا بمساهمة كل فرد قدر استطاعته، إذ أن مظاهر العمران أعمال من تدبير الإنسان، لهذا دعا بن خلدون العمران بأوصاف منها: العمران البشري، العمران البدوي، والعمران الحضري. فنظريته تركز على أبعاد كثيرة أهمها النواحي الإنسانية الاجتماعية و المكانية والزمانية، أي (الإنسان - المكان - الزمان) و هي الركائز الثلاثة الأساسية لقيام العمران.

إن البيئة الجغرافية لها دور في لم شتات الجماعات البشرية و توحيد نشاطها العمراني، و يستنتج من هذا سر تمركز جل الأديان و البعثات النبوية في المنطقة المعتدلة من جزيرة العرب و الشام ومصر⁷³. و إن كان إنسان العصر الحديث قد تمكن بفضل الله و العلم و الإرادة و العمل من جعل قلب الصحراء و الجبال و الأوعار بواذر حضارية و منجزات مدنية عظيمة، و تمكن من الاستفادة من كل مكونات البيئة⁷⁴.

⁶⁹ - محمد بن عبد الكريم الجزائري : المرجع السابق، ص- ص 40 - 41.

⁷⁰ - سعيد محمد رعد : المرجع السابق، ص57.

⁷¹ - عبد الرحمن علي حجي : المرجع السابق، ص69.

⁷² - سعيد محمد رعد : المرجع السابق، ص208.

⁷³ - عماد الدين خليل : ابن خلدون اسلاميا، المكتب الإسلامي، ط2، بيروت، دمشق، 1985، ص41.

⁷⁴ - توفيق محمد سبع : قيام حضارة في القرآن، ج1، دار المنار، ط2، القاهرة، 1984، ص59.

لقد اختلف العلماء في تحديد معاني العمران بالضبط، فمنهم من سماه المدنية و آخرون سموه بالثقافة وكثيرون جعلوه مرادفا لكلمة الاجتماع، لكن الحضارة و الثقافة تختلفان عن العمران الذي يشمل كل شيء إنساني و حضاري و ثقافي، فالحضارة و الثقافة تبدئان حين ينتهي عمر العمران، أي أنه سابق الوجود عنهما.

و خلاصة القول أن العمران دور يقوم به الإنسان منذ الخليقة بالتساكن و الاستقرار في مكان ما، بقصد التعاون والتآنس للحصول على معاشه بالعمل والتفكر، و بالتالي تحصل العلوم والصنائع الكثيرة، وذلك على مرّ الأيام و الأجيال.

2 - مفهوم العمارة: ينقسم مفهوم العمارة إلى قسمين هما:

أ - لغة:

ما يعمر به المكان⁷⁵، فيقال لساكن الدار: "عامر" و الجمع "عمار" لقوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّفْفِ الْمَرْفُوعِ﴾⁷⁶، أي بيت في السماء معمور بالملائكة⁷⁷.

و قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾⁷⁸، أي أذن لكم في عمارتها، وجعلكم عمارا تعمرونها و تستغلونها⁷⁹، أي كلفكم بعمارتها بالحق و العدل و العمل الصالح⁸⁰.

و المعمر: المنزل الواسع من جهة الماء و الكلاء، ذكر ابن الأثير أن الشجرة العمرية هي العظيمة القديمة التي أتى عليها عمر طويل⁸¹.

ب - اصطلاحا:

⁷⁵ - ابن منظور : لمصدر السابق، ص278.

⁷⁶ - سورة الطور : الآيتين 4 ، 5.

⁷⁷ - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، المجلد4، ط2، دار الكتب العلمية، محمد علي بيضون، بيروت، 2006، ص218.

⁷⁸ - سورة هود : الآية 61.

⁷⁹ - ابن كثير : المجلد3، المصدر السابق، ص425.

⁸⁰ - محمد سعيد رمضان البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، ط1، سوريا، 1984، ص26، الزمخشري: الكشاف، المصدر السابق، هود، ص85.

⁸¹ - ابن منظور : المصدر السابق، ص279.

العمارة منشأة مؤلفة من كتلة و فراغات تقوم باستيعاب نشاط إنساني كالإسكان والعبادة و العمل والدفاع، وشروطها المتانة والراحة⁸². بدأت العمارة في العصر الحجري، كان قوامها الحجر الضخم أو الخشب، و كان الهدف منها إيواء الساكنين و حمايتهم من العدوان، كما ظهرت مادة الطين اللين والمشوي "الآجر".

ومع بداية التاريخ أصبحت العمارة فنا وعلمًا يتطلب دراسة هندسية واهتمامًا جماليًا، ظهر ذلك في العمارات الأولى في مصر القديمة وبلاد الرافدين⁸³. ومع منتصف القرن التاسع عشر تطورت صناعة الحديد والصلب لتصبح المادة الإنشائية الأساسية في العمارة، حيث ساعد الحديد على إنشاء عمارات وأبراج مثل برج إيفل وناطحات السحاب. استفاد المعمار أيضا من الزجاج في إقامة منشآت حديدية زجاجية تبدو في قصور البلور التي ظهرت خاصة في لندن، باريس وبسطن، كما ساعد الكهرباء في تطور العمارة، حيث ساهم في تأمين التكييف والإنارة الضرورية والتزيينية.

والعمارة الإسلامية اسم أطلق على الفن المعماري، الذي ساد المناطق التي مستها الحضارة العربية الإسلامية بعد الفتوحات، و يشمل البلاد الواقعة بين خليج البنغال شرقا و المحيط الأطلسي غربا، وينطوي هذا النطاق على ظروف طبيعية متقاربة، أنتجت وضع أسس متشابهة لحضارة معمارية تميزت منذ بدايتها، بصفتي الوحدة والتنوع⁸⁴.

لقد ساهمت في نشأة وتطور العمارة الإسلامية عدة عوامل دينية وبيئية واقتصادية وسياسية تكاد تكون متشابهة في جميع أقطار العالم الإسلامي، مما زاد في توثيق روابطها، وأفضى على الطراز الإسلامي طابعه العام الذي يتسم به، وهو طابع الوحدة الظاهرة التي لا مجال لإنكارها رغم احتفاظ كل قطر بطابع محلي مميز له وخاص به⁸⁵.

⁸² - عفيف البهتسي : العمارة و المعاصرة، دار الشرق للنشر، دمشق، 2005، ص7.

⁸³ - عفيف البهتسي : المرجع السابق، ص7.

⁸⁴ - G. Marcais: L'architecture Musulmane d'occident , Paris, 1955 ,p3.

⁸⁵ - شافعي فريد : العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، القاهرة، 1980، ص- ص 231-292، فكري أحمد: عوامل دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، القاهرة 1979، ص- ص 1-7.

كانت العمارة الإسلامية و لا تزال تحتل مكانة مرموقة بين طراز العمارة التي عرفتها الحضارة الإنسانية العامة، فمن جهة، أضافت العمارة الإسلامية إلى التراث المعماري العالمي نظما تخطيطية جديدة كالمساجد والمدارس و الزوايا، و من جهة أخرى أدخلت على نظم العمارة الجنائزية و المدنية و الحربية أنظمة جديدة جعلت لها طابعا فريدا مميزا، و ما "تاج محل" بالهند و"طوبقابي سرا" بإسطنبول بتركيا و قصر "الحمراء" بغرناطة بإسبانيا، إلا خير شواهد مادية حية باقية تكفي للتدليل على ذلك⁸⁶. و تنقسم العمارة الإسلامية تبعا للوظيفة التي تؤديها إلى عدة أنواع ومنها:

- العمارة الدينية: و التي تحتل المكانة الأولى و المقام الأسمى بين أنواع العماثر الإسلامية الأخرى، ويرجع ذلك إلى العاطفة الدينية و الرغبة في التقرب إلى الله سبحانه و تعالى. و تشمل العمارة الدينية المساجد و الجوامع والمدارس و الزوايا، و تأتي عمارة المساجد على رأس النظم التخطيطية في العمارة الإسلامية عامة و العمارة الدينية خاصة، فالمسجد هو بيت الله، و تعميره من أفضل القربات إلى الله عز و جل، و أسس المسجد لتقام فيه الصلاة التي هي عماد الدين، و من ثم علت منزلة المسجد عند المسلمين، علما أنه لم تقتصر وظيفة المسجد في أول الأمر على الصلاة، بل كان مركزا للحكم و الإدارة والدعوة و التشاور، كما كان محلا للقضاء والإفتاء و العلم و الإعلام وغير ذلك من أمور الدين و الدنيا. فقد ارتبطت الفنون الإسلامية على اختلافها بالمسجد و بعمارته و أثائه و شعائره⁸⁷.

- العمارة الجنائزية: و تشمل المدافن و التراب و القباب و المشاهد و العتبات المقدسة، سواء كانت منفردة بذاتها، أو ملحقة بغيرها من العماثر الدينية غالبا و المدنية و الحربية أحيانا⁸⁸.

- العمارة المدنية: تشمل على عدة أنواع من عماثر خيرية و صحية و سكنية و تجارية و غيرها.

أما العمارة الحربية فتشمل القلاع و الحصون و القصبات و ما يربط بها من أسوار و بوابات و أبراج و مرافق أخرى متعددة⁸⁹.

⁸⁶ - محمد حمزة اسماعيل الحداد : المجلد في الآثار و الحضارة الإسلامية، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006، ص485.

⁸⁷ - الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية، مطبعة القاهرة، ط2، 1990، ص- ص 25- 26.

⁸⁸ - محمد حمزة اسماعيل الحداد : المجلد في الآثار و الحضارة، المرجع السابق، ص488.

⁸⁹ - نفسه، ص نفسها، أما قبة الصخرة فكان بناؤها نموذجا معماريا نادرا في العمارة الإسلامية عامة، و في بلاد الشام خاصة، للمزيد عنها ينظر، بدر محمد عباس : قبة الصخرة، ضمن كتاب دراسات في الآثار الإعلامية، مطبعة القاهرة،

و في كتب الرحالة⁹⁰، وردت عدة مصطلحات، منها ما تعلق بالمدن الإسلامية و مرافقها المختلفة، ومنها: الخطط، المحلات، الرحاب، الدروب، الشوارع، المربعات، الأزقة، المقابر، القرافة، المصليات، و غيرها من المصطلحات، كما وردت مصطلحات تتعلق بالعمارة الحربية، منها: الرباط، القلعة، الحصن، القصبه، المحرس، المرقب، الحصار، الخندق، البرج، السور⁹¹، و أخرى خاصة بالعمارة الدينية مثل المسجد، الجامع، الزاوية، المدرسة، الساحة، المئذنة، المقصورة، وغير ذلك، و أيضا مصطلحات خاصة بالعمارة المدنية، ومنها: الدار، البيت، القصر، الديوان، الرواق، الجناح، المقصورة، الميزاب، القبة، و غيرها⁹²، كما وردت مصطلحات تتعلق بالعناصر المعمارية ومواد البناء و الزخرفة مثل، العمود، القوس، القنطرة، الركن الأسطوان، الآجر، الطوب، الحجر، الرخام، و غيرها من المصطلحات، علما أن هذه المصطلحات كانت متطابقة ومتشابهة مع مثيلاتها التي وردت في كتاب المؤرخين المعاصرين، كان هؤلاء الرحالة يشيرون إلى المصطلح المتداول والشائع في بلدانهم، و ما يقابله في البلدان الأخرى التي يزورونها، مما سهل توحيد هذه المصطلحات بين الأقطار العربية و الإسلامية، و مثلا على ذلك، ما أورده المقديسي عند حديثه عن أبنية غزنين⁹³ بقوله: "وبنيانهم عامته خشب، فيه شيء يقال له "عشك" يشبه فسيفساء مصر"⁹⁴. فالمقديسي يضيف مصطلحا جديدا غير معروف بين جمهرة الأثريين وهو "عشك" أو فسيفساء، حيث توجد دولة أفغانستان كمرادف لمصطلح الفسيفساء و الذي كان متداولاً في مصر والحجاز و الشام و غيرها من أقطار المشرق الإسلامي⁹⁵، و هنالك مرادف آخر

1979، ص- ص 75-82، فان برشم، مارجریت، واورى، سولانج: القدس الإسلامية في أعمال ماكس برشم، ترجمة عطى الله دهينة و آخرين، دمشق، 1994، ص41، و ينظر أيضا، عبده عبد الله كامل: الأمويون و آثارهم المعمارية، مطبعة القاهرة، 2003، ص54.

⁹⁰ هم كثيرون منهم : القلصادي- رحلة القلصادي/الحسن الوزاني: وصف افريقية/الورثيلائي: الرحلة الورثيلائي/ابن بطوطة: الرحلة/ابن جبیر: الرحلة/المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب/المقديسي: أحسن التقاسيم/المقريزي: الخطط المقريزية، و غيرهم كثير.

⁹¹ محمد حمزة اسماعيل الحداد : المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة، 2001، ص18.

⁹² نفسه، ص19.

⁹³ غزنين : وصفها المقديسي بأنها: "قصبه ليست بالكبيرة، إلا أنها رحبة منعمة رفيعة الأسعار، كثيرة اللحم، طيبة الفواكه مع كثرتها، و لها مدن جليلة، و المعایش بها حسنة، و هي أحد فرض خراسان و خزائن السند"، ينظر، المقديسي: أحسن التقاسيم، بيروت، 1987، ص239.

⁹⁴ نفسه، ص239.

⁹⁵ محمد حمزة اسماعيل الحداد : المدخل، المرجع السابق، ص23.

لهذين المصطلحين، كان شائعا في المغرب الإسلامي و هو "الفص المذهب"⁹⁶، أو المفصص المعروف في المشرق بالفيسفاء⁹⁷، و منه ما أورده ابن بطوطة عند حديثه عن مدينة النجف بقوله: "و حيطانها بالقشاني، و هو شبه الزليج عندنا، لكنه لونه أشرق و شكله أحسن"⁹⁸، و قد عرف أحيانا باسم القيشاني أو الكاشن (القاشي) و هو ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه⁹⁹، أي أن مصطلح القشاني يرادف مصطلح الزليج في المغرب، و من قول ابن بطوطة عن مصر "و أما الزوايا في مصر فهي كثيرة، و هم يسمونها الخوانق واحدها خانقة، و الأمراء في مصر يتنافسون في بناء الزوايا..."¹⁰⁰، أي أن مصطلح الخانقات بمصر يرادفه مصطلح الزاوية بالمغرب، و الذي كان يعرف أيضا بالرباط¹⁰¹ قبل القرن 6/12م. و بخصوص مواد البناء، أورد ياقوت الحموي عن الآجر بقوله "و هو بلغة أهل مصر "الطوب" و بلغة أهل الشام "القرميد"¹⁰²، كما عرف الآجر عند العراقيين بـ"الطابوق"¹⁰³.

وذكر المقديسي اختلافا في مسميات المنشآت التجارية، فذكر مثلا، فندق، خان، دار التجار¹⁰⁴، و يقول ابن بطوطة: "و بكل مرحلة، و منها فندق، و هم يسمونه الخان، ينزله المسافرون بدوابهم، و بخارج كل خان ساقية للسيل و حانوت يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ولدابته"¹⁰⁵، أي أن مصطلح الفندق الذي ما زال متداولًا في المغرب، يرادفه في مصر لفظ الخان، حيث زارها ابن بطوطة عام 726هـ/1325م.

⁹⁶ - ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، تقديم محمد سويدي، الجزائر، 1989، ص63.

⁹⁷ - المقري : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1998، ص- ص 69 - 70.

⁹⁸ - ابن بطوطة : المصدر السابق، ص 119.

⁹⁹ - ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج4، دار صادر، بيروت، لبنان، 1995، ص296.

¹⁰⁰ - ابن بطوطة : المصدر السابق، ص33.

¹⁰¹ - الرباط: الحصن أو المكان الذي يربط فيه الجيش، و الأنسب كلمة رباطات، و هي المعاهد الدينية و الموقوفة

للفقراء، ينظر، ابن خلدون: المقدمة المصدر السابق، ص442.

¹⁰² - ياقوت الحموي : المصدر السابق، ج1، ص51.

¹⁰³ - عباس التميمي: الطابوق، صناعته و أشكاله في العراق، مجلة سومر، العدد1 - 2، بغداد، 1982، ص- ص

¹⁰⁴ - المقديسي : المصدر السابق، ص39.

¹⁰⁵ - ابن بطوطة : المصدر السابق، ص43.

وبعد هذا الوصف للعمارة ومصطلحاتها ومقارنتها مع مصطلحي الحضارة والعمران، نستنتج أن العمارة هي الجانب التطبيقي والعلمي والفني للعمران البشري والذي ينتهي بمظهر من مظاهر الحضارة الإنسانية، فمن خلال العمارة ومنجزاتها وفنونها، نتعرف على درجة ومستوى ما حققته وتوصلت إليه في مسيرة حضارتها.

المحور الثاني: العمران في الفكر الإسلامي.

المحاضرة الثالثة: ضوابط وأسس تخطيط وتحصين المدن عند بعض المفكرين المسلمين:

ثانياً- شروط التخطيط و التحصين

أما فيما يخص التقسيم و التخطيط الداخلي للمدينة و الشروط الواجب توفرها، فقد ذكر بعضها القزويني بقوله: "على الباني أن يتخذ للمدينة سورا حصينا منيعا، و للسور أبوابا عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول و الخروج، بل يدخل و يخرج من أقرب باب إليه، و اتخذوا لها قهندازا لمكان ملك المدينة، و النادي لاجتماع الناس فيه، و في البلاد الاسلامية المساجد و الجوامع و الأسواق و الخانات و الحمامات، و مراكز الخيل و معادن الإبل و مرايض الغنم، و تركوا بقية مساكنها لدور السكان، فأكثر ما بناه الملوك و العظماء على هذه الهيئة، فترى أهلها موصوفون بالأمزجة الصحيحة و الصور الحسنة و الأخلاق الطيبة، و أصحاب الآراء الصالحة و العقول الوافرة"¹⁰⁶.

و يؤكد القزويني على هذا بأنه عند حصول الهيئة الاجتماعية للناس فإنهم لو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر و البرد و المطر و الريح، و لو تستروا بالخيام و الحرقهات لم يأمنوا مكر اللصوص و العدو، و لو اقتصروا على الحيطان و الأبواب كما نرى في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صولة ذي بأس، فألهمهم الله اتخاذ السور و الخندق و الفصيل، فحدثت المدن و الأمصار و القرى و الديار"¹⁰⁷.

و قد ذكر لنا الفرستائي هذه المعايير فقال: "و إن أرادوا أن يحدثوا منزلا في أرضهم و يجاورهم أراضي غيرهم فالذي يجب أن يفعله في هيئة المنزل أن يجعلوا له أربعة أبواب، و يجعلوا فيه شارعين من الشرق إلى الغرب شارع، و من القبلة إلى الشمال شارع، و ينفذون طرق الدور إلى الشارع من غير مضرة لأحد على جاره، و هذا فيما حواه المنزل، و الذي يجب للمنزل من الطرق أربعة، قبلي و شرقي و جبلي و غربي، و منهم من يقول يجعلون له الصبا، و الدبور و الجنوب و الشمال، و منهم من يقول يجعلون له طريقا إلى الفحص لمراعيهم، و طريقا إلى الجبل و طريقا إلى الماء و آخر إلى السوق، و إن كفاهم أقل من هذا فلهم ذلك، و إن احتاجوا إلى خمسة طرق أو أكثر فيما لا غنى لهم عنه و لا بد لهم منه فلهم ذلك كله، سواء في هذه المعاني أرجعت لهم إلى ناحية واحدة أو افتترقت، فكل ما لا بد لهم منه يدركونه و يحدثونه"¹⁰⁸.

¹⁰⁶ - القزويني: المصدر السابق، ص8.

¹⁰⁷ - نفسه، ص نفسها.

¹⁰⁸ - الفرستائي: القسمة و أصول الأرضين، تحقيق و تقديم، بكر بن محمد الشيخ بلحاج، محمد صالح الناصر، المطبعة العربية، جمعية التراث القرارة، ط2، غرداية، 1997، ص 119-120.

و يوضح كيفية بناء القصر -يعني الصحراوي- من تحديد الأرض و تقسيم المنازل فيه وكيفية البناء و نظامه، و إقفال البوابة و الشرفات و الساحة و البئر و البيوت¹⁰⁹.

و عندما تناول ابن أبي الربيع عمارة البلدان فإنه قسمها إلى قسمين مزارع و أمصار، فأما المزارع فهي أصول المواد التي بها يقوم أود الخلق و يلزم فيها حقوق ثلاثة، الأولى للقيام بمصالح المياه لينتفع بها القريب و البعيد، الثانية كف الأذى عنهم، لأن لا يشتغلوا بغير الزراعة، الثالثة تقدير ما يؤخذ منهم بحكم الشرع و العدل حتى لا ينالهم خوف و لا عسف، فإن حيف عليهم شيء من ذلك أو عسف بهم انعكس الصلاح إلى ضده.

و أما الأمصار و هي الأوطان الجامعة و المقصود بها خمسة أمور، أولها أن يستوطنها أهلها طلبا للدعة و السكون، ثانيها حفظ الأموال فيها من الاستهلاك، ثالثها صيانة الحريم و الخدم من الانتهاك، رابعها التماس ما تدعو الحاجة إليه من متاع أو غيره، خامسها لا يتعرض للكسب و طلب المادة¹¹⁰.

و عموما انطلقت المدينة الإسلامية في نشأتها و تطورها من محاور أساسية في التخطيط بلورها "ابن الربيع" في ثمانية شروط¹¹¹ أوجب على الحاكم اتباعها عند تخطيط المدينة نجملها في ما يلي:

1- أن تسوق إليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل تناوله من غير عسر، أي أن تكون مصادر المياه متوفرة، مع وجوب تسهيل إيصال الماء العذب إلى سكان المدينة عن طريق تخطيط شبكات التوصيل سواء أكان ذلك بالقنوات أو الأنابيب، أو بحفر الجداول أو بنقله على ظهور الدواب¹¹².

و جاء توفير الماء في مقدمة الشروط لأن تأخره يتسبب في إحداث خلل و نقص في كفاءة المدينة ويحدث تعارض مع عناصر التخطيط الباقية¹¹³.

2- أن يقدر طرقها و شوارعها حتى تتناسب و لا تضيق حتى يسهل على الناس التنقل بحرية كما يسهل على الدواب المحملة السير و التقاطع دون أن تتصادم، و هكذا نجد في المدينة شبكة محكمة من الطرقات والمسالك منها الكبيرة كالشوارع، و المتوسطة كالأزقة و الصغيرة كالدروب، تأثرت كلها بالأحكام

¹⁰⁹ - الفرسطائي: المصدر السابق، ص- ص 192- 198، محمد بن حمة: المرجع السابق، ص76.

¹¹⁰ - ابن أبي الربيع : المصدر السابق، ص 151- 252.

¹¹¹ - ابن أبي الربيع: نفسه، ص154.

¹¹² - مفتاح سعيدة: المرجع السابق، ص33، محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص 112-

113.

¹¹³ - مفتاح سعيدة: المرجع السابق، ص34.

الفقهية فكان مثلا في الفصل في موضع الطريق كما رأينا يأخذ بالحديث الشريف أي عرض الطريق سبعة أذرع (حوالي 3.5م).

3- أن بينى فيها جامعا للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع أهلها، حيث كان أول ما يختط في التكوينات المعمارية للمدينة هو المسجد الجامع افتداء بما فعله الرسول صلى الله عليه و سلم عندما هاجر إلى المدينة، فقد وجد في البداية و في الغالب مسجد جامع واحد، و عدة مساجد أحياء بحيث كان لكل حي مسجده الخاص، و يؤدون الصلاة الجامعة في المسجد الجامع، لكن مع تطور العمران و توسع المدينة وتعدد أريافها، أصبح انشاء مسجد جامع بالربض مع شرط وجود حدود مادية فاصلة كنهر أو سور أو مثل ذلك¹¹⁴ مثل ما حدث بالقاهرة التي كانت بها أربعة مساجد هي: جامع عمرو، و جامع ابن طولون، والجامع الأزهر، و جامع الحاكم.

و نظرا للأهمية الدينية و السياسية التي كان يمثلها هذا الصرح، في خطة المدينة نجد أما بجواره بقع مقر السلطان أو الحاكم أو الخليفة، و هذا ما قام به الرسول صلى الله عليه و سلم.

4- يقدر أسواقها لينال سكانها حوائجهم عن قرب، يعتبر السوق من المرافق الأساسية في المدن، وصارت مرفقا ضروريا لحياة المجتمع المسلم، يقوم على أسس اسلامية جديدة جدها الرسول صلى الله عليه و سلم، عندما قال: "هذا سوقكم فلا يضيق و لا يؤخذ فيه خراج"¹¹⁵، و كانت سوق المدينة فضاء واسعاً لا بناء فيه، لكن مع تطور النشاط التجاري، و تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدن الاسلامية، تنوعت الأسواق و أصبحت الدروب و الأحياء تسمى بنوع التجارة والحرفة السائدة فيها كالحناسين و الدباغين و غيرها.

5- يميز بين قبائل ساكنيها بالألوان يجمع أصدادا مختلفة متباينة، و ذلك بأن يجعل كل قبيلة في حي خاص بها لها مساجد أحيائها و حوائيتها و أحيانا لها مقبرتها الخاصة بها و يجمعهم المسجد الجامع كما كان ذلك في المدن الأولى التي بناها المسلمون كالكوفة و القيروان¹¹⁶، و هذا الشرط يشير إلى مشكلة

¹¹⁴ - عبد العظيم المنذري: مختصر صحيح مسلم، المصدر السابق، ص251.

¹¹⁵ - ابن ماجة: سنن ابن ماجة، كتاب التجارات، باب الأسواق و دخولها، رقم 2233، محمد عبد الستار عثمان: المدينة

الاسلامية، المرجع السابق، ص113، مفتاح سعيدة: المرجع السابق، ص35.

¹¹⁶ - الطبري: المصدر السابق، ج2، ص280، اسماعيل العربي: المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع،

الجزائر، د.ت، ص 239- 240، موسى لقبال: المغرب الاسلامي، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر،

1981، ص29.

صراع الأجناس التي ظهرت في مدينة بغداد في حكم المعتصم بالله، بعدما أهمل هذا الأخير الجنسين العربي و الفارسي و اهتم بالأترك الذين كانوا يشكلون المحرك الرئيسي لجنده و جيشه¹¹⁷.

6- إذا أراد سكانها فليسكن أفسح أطرافها، و يجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته، و هذا لتأمين مركز السلطة بعزله عن مواضع سكن الرعية أو العامة بحيث كان الأعوان المقربون هم الذين يقطنون في مناطق قريبة من الحاكم، الذي كان يحرص على جعل خواصه محيطين به من سائر جهاته، حتى لا يتعرض مواكبه و رجاله لأذى العامة و المارة من أهل الفتنة و الثائرين ضد الحكم و من الأمثلة على ذلك أبو جعفر المنصور الذي خط لأتباعه المقربين مناطق مكية بجوار قصره ببغداد، و المعتصم في سمرام، و المعز بالقاهرة...¹¹⁸.

7- أن يحيطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة أي أن تأمين المدينة في صياغة ابن الربيع يعني تأمين كيان عضوي واحد فهي بمجملها "دار واحدة" و يكشف هذا عن النظرة المتكاملة لتخطيط المدينة و ارتباط تكويناتها المعمارية ارتباطا واحدا، فكان السور لا يبني إلا بعد أن تستقر كل قبيلة في مكانها و تترك فراغات (رحاب) بينها لمن أراد السكن فيما بعد، أو لإمكانية اتساع المدينة، ثم يبني السور الذي يضم كل السكان¹¹⁹، و أدى التطور العمراني إلى توسع نطاق الأسوار و وصلها ببعضها عن طريق أبواب تربط الحارات و الأحياء بقلب المدينة و مركزها، حيث دعا تأمين المدينة إلى تقسيمها إلى دروب و أزقة تغلق عليها الأبواب ليلا فتعزل كل حارة عن الأخرى عزلا تاما، و تؤمن من خطر اللصوص و تمكن الحراس من السيطرة على الحالة الأمنية¹²⁰، و من المدن التي تبلور فيها هذا النظام، بغداد و القاهرة وقرطبة و فاس و تيهرت¹²¹.

8- أن ينقل إليها من أهل العلم و الصنائع بقدر الحاجة إلى سكانها، حتى يكتفوا بهم و يستغنوا عن الخروج إلى غيرها، و هذا الشرط يعتبر من المقاييس التي تميز المجتمع الحضري للمدينة بما توفره من

¹¹⁷- سعيدة مفتاح : المرجع السابق، ص37.

¹¹⁸- نفسه، ص39.

¹¹⁹- محمد بن حمو: مجلة القرطاس، المرجع السابق، ص71.

¹²⁰- سعيدة مفتاح: المرجع السابق، ص40.

¹²¹- و قد أشار ابن الصغير إلى أن يعقوب بن أفلح أمر بأبواب المدينة فغلقت إلا بابا واحدا، ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستمييين، تحقيق و تعليق محمد الناصر و ابراهيم بحاز، ديوان المطبوعات الجميلة، 1986، ص97، و يقول سليمان الباروني: "فأمر يعقوب بأبواب المدينة فأغلقت و ترك واحد وقف عليه بنفسه مع من كان معه"، سليمان الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، ط3، دار البعث، قسنطينة، 2002، ج2، ص360.

الخدمات المتمثلة في نشاط أهل العلم و الصنائع الذين يكفون المدينة حاجاتها، و أبرز الأمثلة على ذلك ما فعله الخليفة المهدي حيث كان يسكن هو و أهله بالمهدية، و أسكن العامة في زويلة، وكانت دكاكينهم وأموالهم بالمهدية، و بزويلة مساكنهم، و كانوا يدخلون بالنهار المهدية للعمل والكسب، و يخرجون بالليل إلى أهاليهم فقيل للمهدي: "إن رعبتك في هذا في عناء فقال: لكن أنا في راحة لأنني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم، و بالنهار أفرق بينهم و بين أهاليهم، فأمن غائلتهم بالليل، و النهار"¹²².

لقد ساهمت هذه الفئات في تطور المدينة الاسلامية فتقدمت الصناعات بأنواعها و ازدهرت التجارة، و ارتقت الخدمات ارتقاء واضحا في إطار النظم و القوانين التي تقوم على تنفيذها المؤسسات التي تسهر على نظام المدينة الاسلامية و رعاية شؤونها و توجيه تخطيطها، و حل مشاكلها، و منها السلطة الادارية ممثلة في الوالي و أعوانه و في السلطة القضائية و أجهزة الأمن والمراقبة كجهاز الشرطة والمحتسب.

و من خلال هذه الشروط الثمانية نتضح لنا الأسس و القوانين العامة التي كانت تحكم تخطيط المدينة الاسلامية، بطريقة تثبت أن التخطيط العمراني قام على معايير توافق قيم الدين الاسلامي و تخضع للأحكام الفقهية، و التي كانت تعنى بحاجات المجتمع المادية و الروحية، الفردية والجماعية، مستفيدة و آخذة مما صلح من الحضارات السابقة.

نستنتج من خلال ما سبق أن المدينة كما تعرفها المعاجم العربية و القواميس اللغوية مأخوذة من مدن بالمكان أي أقام به، كما أنها في التعريف الاصطلاحي الحديث، حقيقة مادية مرئية في المظهر، من حيث الكثافة السكانية، و الكتلة البنائية و البعد التاريخي، فالمدينة تاريخيا تعد وحدة تشكيلية قديمة خبرها المجتمع الانساني منذ زمن بعيد، و هي أعظم إنجاز حضاري حققه الانسان، وعليه ليست المدينة بخبرة جديدة من التفكير الانساني أنها جاءت كما يعتقد بعضهم نتيجة الثورة العلمية التي نبتت بذورها منذ أكثر من قرن فقط، بل هي خبرة قديمة عرفتتها حضارات الشرق القديم من سومرية و فرعونية، كما عرفتتها الحضارات اليونانية و الرومانية، و من ثم يمكننا القول أن العالم القديم كان عالم مدن و إن كانت كل مدينة تعد في حد ذاتها علما قائما بذاته.

و في العصور الوسطى و في ظل الحضارة العربية الاسلامية نشأت العديد من المدن كان لبعضها الطابع العسكري مثل البصرة و الكوفة و الموصل و الفسطاط و القيروان، و بعضها لها الطابع الاداري كواسط، و بعض منها لها الصفة السياسية كبغداد و القاهرة، و بعض آخر لها الطابع الديني

¹²² - سعيدة مفتاح: المرجع السابق، ص41.

كالنجف وكربلاء و تيهرت، فازدهرت هذه المدن في ظل الحضارة الاسلامية و صارت مضربا للأمثال في مظاهرها العمرانية و أنماطها الاجتماعية و معالمها الثقافية و الفنية، من ذلك ما وصلت إليه البصرة و الكوفة في عهد الأمويين و العباسيين و القاهرة في عهد الفاطميين، القيروان في عهد الأغالبة و تيهرت في عهد الرستميين، فالمدينة على حد تعبير "لابلاش" كالشجرة تربتها الجغرافيا وملؤها التاريخ.

لقد أشار معظم المفكرين إلى أن الاجتماع الانساني ضرورة لا بد منها بسبب أن الانسان لا يمكنه أن يحصل على الغذاء بمفرده خاصة ذلك الغذاء الذي يتطلب الجهد الكبير للانتفاع به كالزراع، كما أنه بحاجة إلى اللباس و المسكن و العلاج و الدفاع عن نفسه، ضف إلى ذلك الغريزة البشرية وميله إلى الأناس، لذلك وجب عليه الاجتماع، ثم أن هذا الاجتماع إنما يكون في منطقة تصلح للسكن، لهذا حدد المفكرون شروطا و بينوا سلبية المناطق التي لم تختار بعناية، كما وصفوا ضوابط وأسس الاستقرار والتعمير كتوفر الماء و اتساع الطرق و تعددها و وجود المسجد الجامع و مساجد الأحياء مع ضرورة وجود السوق وإحاطة المدينة بسور، و أن ينقل إليها أهل العلم و الصنائع الذين يساهمون في تطوير و ازدهار المدينة حضاريا.

المحوران الثالث والرابع: الكوارث الطبيعية، الحروب والهجرات وأثرها على العمران في

الغرب الإسلامي (اختيار مدينة من المغرب الأوسط):

مدينة تلمسان الزيانية (المحاضرتان: الرابعة والخامسة)

كان المجتمع التلمساني يتألف من السكّان الأصليين من الأمازيغ ويشكّلون غالبية سكان مدينة تلمسان ولاسيما منها: مغيلة ومغراوة وبني يفرن إضافة للعرب الفاتحين الذين استقروا بها بعد كل فتح من الفتوحات التي قامت بها الدول التي توالت على هذا القطر، كما توافد على تلمسان العديد من الأسر

الأندلسية خصوصا في فترة الأزمات السياسية للأندلس. إضافة لأقلية يهودية التي ازداد عددها في العهد الزياني بعد الاضطهاد المسيحي بالأندلس، أمّا المسيحيين فلم يكن يمثلها إلا المرتزقة من الأجانب المنخرطين في الجيش الزياني (بوعباد، 1982، ص39-40). وقد تأثر المجتمع التلمساني بطبيعة الحال كغيره من المجتمعات تأثيرا شديدا بالجوائح والأوبئة وبالأزمات السياسية التي كانت تحدث من حين لآخر.

2. عوامل وأسباب انتشار الأوبئة والأمراض:

1.2 الأسباب الطبيعية:

ظهرت الأوبئة في تلمسان بسبب عوامل طبيعية تمثلت أساسا في التغيرات المناخية ببلاد المغرب الإسلامي التي انعكست سلبا في حدوث الجفاف، فندرة الأمطار وتواصل انقطاعها لفترة طويلة أدت إلى قحط كبير وجذب وجفاف الأنهار تلتته في الغالب مجاعة وأوبئة فتاكة (بلعربي، 2011، ص257)، فمنذ سنة 776هـ/1374م عمّ جفاف بالبلد مدة ثلاث سنوات 776-778هـ/1374-1376م، نفذت فيها المؤن والمدخرات وارتفعت الأسعار بشكل رهيب (بن القنفذ، 1965، ص257)، وقد عبر عنها ابن خلدون بقوله: "فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقتلتها مختلفة والمطر يقوي ويضعف ويقلّ ويكثر الزرع والثمار والضرع على نسبهه إلا أنّ الناس وانقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلى الزرع وعجز" (ابن خلدون، 2006، ص282).

كما كانت الرياح والعواصف القوية التي كانت تهبّ آخر كلّ خريف أو خلال الشتاء مصحوبة بالبرد والصواعق والتلوج سببا في إتلاف وإحراق المحاصيل الزراعيّة وتفسده (ابن مرزوق، 1981، ص222)، ممّا يؤدّي إلى حدوث مجاعات عاصري يحيي بن خلدون إحداها، ووصفها قائلاً: "إنها نتجت عن إحصار عظيم، أهلك زرع صائفة تلمسان وحيوانها فأكل الناس بعضهم بعضا وافتقروا ما لدى السلطان" (بن خلدون، 1903، ص326).

كما كان للجراد دور في انتشار المجاعات وبالتالي انتشار الأمراض والأوبئة حيث أتى على المحاصيل الزراعيّة فارتفع ثمن القمح ومختلف المواد الغذائية وتكرر قدومه فكان في سنة 617هـ/1220م ثمّ سنة 624هـ/1228م ثمّ سنة 630هـ/1232م (فيلاي، 2002، ص253).

2.2 الأسباب البشريّة:

كثرت الأوبئة والأمراض وازداد الوضع سوءا بتلمسان بسبب الحروب والفتن الداخليّة والخارجية التي نتج عنها عدم الاستقرار السياسي. إذ أنّ تلك الصراعات لم تقتصر على الحروب بين الجيوش بل تعدّت إلى تشويه مختلف مظاهر الحياة الاقتصادية أو تحطيمها كردم العيون، نسف وتخريب الزرع وإحراق الأشجار (بوداود، 2003، ص178)، (بوتشيش، 2000، ص202). ومثالا على ذلك على ذلك استغلّت قبائل توجين التي كانت المناوئة للسلطة الزيانية حصار السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقّ 656-685هـ/1258-1286م لتلمسان وراحت سنة 670هـ/1271م تخرب جهات تلمسان "فقطعوا

الثمار ونسفوا الآبار وخربوا الربوع وأفسدوا الزروع ولم يدعو بتلك الجهات قوت يوم حاشا السدرة والدوم... (بن أبي زرع، 1972، ص311)

إن هذه الحروب لم تكد تنقطع إلا في فترات محدودة تبعها حصار المدن الذي أثار سلبا على حياة المحاصرين بانتشار الأوبئة والأمراض وغلاء الأسعار السلع (ينظر الجدول أسعار المنتجات النباتية والحيوانية)، لأن يوسف بن يعقوب المريني 685-706 هـ / 1286-1306 م، عندما حاصر تلمسان 698-706 هـ / 1298-1307 م كان قد تواعد أهل تلمسان بقوله: "لأواصله عليهم حتى أقتلهم جوعا" (بن الأحمر، 1962، ص50)

نتيجة لذلك، انبسطت مجاعة عظيمة بالمدينة اضطر فيها الناس إلى إتباع نمط غذائي غير صحي كالإقتيات على الحبوب الفاسدة والمتعفنة من طول الاختزان وأكل أنواع شتى من الحيوانات التي تنفر منها النفوس السوية وتعافها كالفتران، الكلاب... لأن همهم الوحيد سدّ أرقامهم من الجوع (ابن خلدون، 2006، ص128-129).

الأوبئة والأمراض وتأثيراتها على المجتمع والعمران البشري:

***الأوبئة:**

لا شك أنّ الأوبئة بسبب سوء التغذية وفسادها، يؤكّد ابن هيدور ت 791 هـ / 1413 م هذا الاستنتاج من خلال تحليله أسباب انتشار الطواعين بقوله أنّها ترتبط بعوامل بشرية، اجتماعية، واقتصادية زيادة على عوامل مناخية وفلكية ذكرت في "قانون ابن سينا: يحدث هذا المرض أيضا من فساد الأغذية المستعملة في زمان المجاعات وغلاء الأسعار، فيضطرّ الإنسان إلى تناول غذاء غير مألوف قد فسد وتعفنّ طول زمانه... فيفسد المزاج من هذه الأغذية وتحدث الأمراض القاتلة" (بوجرة، 2011، ص108-109)

يؤكّد ابن هيدور أنّ هذا الموت لا يكون إلاّ بأثر الغلاء، فهو لازم من لوازمه... وإذا طال الغلاء واشتدّت أسبابه لزم عنه الوباء، وهذا علم صحيح وقانون مطرد لا يحتاج فيه إلى تعليل ولا إلى نظر النجوم" (بوجرة، 2011، ص108-109).

الغلاء إذن هو الأصل وهو الذي يفضي إلى الوباء، والوباء هو الفرع فالعلاقة بينهما هي علاقة تلازمية.

أما الوباء المرتبط بالعوامل المناخية من ناحية وبالغلاء والمجاعات من ناحية ثانية، فالغلاء ناتج حتما عن القحط وإما عن الفتن والحروب "كما أنّ الغلاء لحدوثه سببان، أما احتباس المطر، وإما لظهور الفتن والحروب بسبب خروج الخوارج على الملوك" (بوجرة، 2011، ص108-109)

أ-وباء الطاعون: يعدّ وباء الطاعون من أخطر الأوبئة التي بليت بها البشرية في العصور الوسطى بعد تلك التي وبى بها العالم القديم آخرها طاعون جوستينيان سنة 522م والذي عمّ أنحاء العالم بما فيها سواحل إفريقيا الشمالية، من جهة أخرى وثقت أغلب الدراسات الحديثة عام 749هـ/1348 تاريخا لولادة الطاعون في الحوض الغربي للبحر المتوسط بيد أنّ بدايته كانت في آسيا الصغرى ظهر أولا في بلاد الصين ثمّ اكتسح أوروبا ثمّ انتشر بشمال إفريقيا ومنها تلمسان سنة 750-751هـ/1349-1350م (مزدور، 2009، ص139)

وعرف هذا الطاعون بتسميات مختلفة منها: الطاعون الأكبر، الطاعون الأسود *la peste noire*، الموت الأسود، والشرّ الأسود، والفصل الأكبر، وسنة الفناء، الموتان.

ولشدة خطورته وتخوف الناس منه، صنّف العلماء عديد الرسائل والمؤلفات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: رسالة ابن الخطيب "مقنعة السائل عن مرض الهائل" رسالة ابن خاتمة المري الأندلسي المسماة "تحصل عرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، وألف والد ابن قنّذ كتابا سماه "المسنون في أحكام الطاعون"، كما ألف أحد المشاركين كتابا في هذا الباب سماه "دفع النقمة بالصلاة على نبي الرحمة" ولابن حجر مصنّف في هذا المجال بعنوان "بذل الطاعون في فضل الطاعون" (بوجرة، 2011، ص108-109). وصنّف لعدّة أصناف هي كالتالي:

الطاعون التعفني أو السميّ *peste septicémique*، الطاعون الرئوي *peste pulmonaire*، الطاعون أو pneumonique، الطاعون الأسود *peste hémorragique*، الطاعون الدوار *peste ambulatoire* (خلفات، 2011، ص429-430)

وقد عاصره عبد الرحمن بن خلدون هذا الطاعون، فوصفه وصفا دقيقا بقوله: " نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحقيق الأمم وذهب بأهل الجبل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها جاء للدول على حين هرمها، وبلوغ الغاية من مداها فقلّص من ظلالها، وقلّ من حدّها وأوهن من سلطانها وتوادعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقض عمران الأرض انتفاض البشر، فخرجت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وحلّت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدّل الساكن وكأنتني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، ولكن على نسبته ومقدار عمرانه" (ابن خلدون، 2006، ص53).

إنّ الطاعون الذي ألمّ بتلمسان سنة 750هـ/1349م كان أشدّ ضررا حيث أباد خلقا كثيرا منهم عائلات بأكملها مثل: أسرة حفيد العالم التفريسي التي انقرضت كلّها جراء هذا الوباء (فيلاي، 2002، ص253)، أبو عبد الله محمد بن يحيى النجار ت 749هـ/1349م الذي يعدّ من خيرة علماء المغرب

الإسلامي في العلوم العقلية الذي هلك بالطاعون سنة 749هـ/1349م (بن خلدون، 2007، ص47)،
(القصادي، 1982، ص102)

ب/- طاعون 764-765هـ/1363-1364م:

بعد مرور أربعة عشر سنة عن الطاعون الأوّل وبئت تلمسان بطاعون أشدّ ضراوة وخطورة، فتك
بأهلها مخلّفاً الكثير من الضّحايا، نعته ابن هيدور بالبواب الثاني (بلعربي، 2009، ص23)

ويرجع ابن الخطيب (نقلا عن الدكتور بلعربي خالد) أصل هذا البواب إلى المجاعة التي انتشرت
ببعض المناطق "لكونها لم تستأثر بلا رحمة ممّا قسم الله لغيرها إلى ما أصابها من معرة الفتنة إلى هذا
العهد واستهدف من بها إلى هلكة المجاعة وفتو الموتان" (بلعربي، 2009، ص23).

ج/- طاعون 845هـ/1442م:

تفشّى الطاعون بتلمسان سنة 845هـ/1442م، وأزهق أرواح السّواد الأعظم من النّاس (فيلالي،
2002، ص251) كالعالم أحمد بن عبد الرّحمن المغراوي التلمساني المعروف بابن زاغو (القصادي،
1982، ص105)

2.4: /الأمراض:

لم تكن الأوبئة الهاجس الوحيد الذي يؤرّق أهل تلمسان، بل توطّنت مجموعة من الأمراض في
هذا المجتمع الهشّ وتغلّغت فيه بسبب سوء التّغذية وانعدام شروط النّظافة، نتج عنها تدهور الوضع
الصّحي. ولعلّ أبرز تلك الأمراض التي انتشرت آنذاك ما يلي:

مرض الجذام الذي يعدّ على رأس قائمة تلك الأمراض، انتشر بتلمسان ومسّ شرائح مهمّة من
المجتمع والصّالحين والعلماء (مزدور، 2009، ص142).

أمراض البطن التي لا تقلّ خطورة عن الطّاعون حيث يعتبر مرض الزّرب أو الإسهال
الشّديد على سبيل المثال من أشدّ العلل فتكا بالنّاس فقد توفي به الشيخ أحمد الماوسي سنة
874هـ/1469م بعد أن معاناته منه لمدّة أيام معدودات (بن سعد، 2002، ص235-236)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلّى الله عليه وسلّم: "الشّهداء خمسة: المطعون
والمبطن والعرق وصاحب الهدم والشّهيد في سبيل الله عزّ وجلّ" (بن مسلم، 2015، ص630)

مرض الفالج palsey هو فقدان الحركة أو الحس، ينتج عن إصابة في الدماغ أو عدوى أو تعفن في الرأس، ويعرف أيضا بالشلل النصفي hemiplegia، هدّد حياة أهل تلمسان وتوفي به أعلام كثيرون كالسلطان المريني أبي عنان المريني سنة 755هـ/1354م (ابن مرزوق، 1981، ص378)

الأمراض الجلديّة التي تفشّت بسبب عوامل مختلفة كتلوث المياه وانعدام توازن النّمط الغذائي (مزبور، 2009، ص142) لعلنا نذكر أبرزها:

القرع الذي يعدّ مرضا جلديا معديا يصحبه ظهور قشور فوق منابت الشّعر فيسقط، أصاب رؤوس الأطفال والنساء، وكان الاستشفاء منه أمرا مستعصيا (الوزان، 1983، ص83) ،

داء البهاق vitiligo الذي يذهب بلون الجلد، فتظهر فيه بقع بيضاء، والبرص le prosy الذي يعتبر مرضا معديا مزمنًا خبيثًا، يؤذي الجهاز العصبي، ويحدث قشرا أبيض ويسبّب حكّا مؤلما، داء الجرب scabies الذي يسببه نوع من العناكب وينشأ عنه حكة شديدة.

الدّمامل boils هي بثور مملوءة بالقح تتكون تحت الجلد، إضافة إلى الأورام المستعصية التي كانت تصيب الأطفال، كابن مرزوق الذي ابتلي بها في صغره (ابن مرزوق، 2008، ص231).

مرض الفتق تحرك الأمعاء إلى الخارج ممّا يؤدي إلى ظهور نتوء في السرة، ومرض الدّماس الذي توفي به السلطان عثمان بن يغمراسن سنة 703هـ/1203م (فيلالي، 2002، ص244)

مرض النقرس هو التهاب المفاصل، أصاب عددا من القوم خاصة من عاقروا الخمور وأكلوا الدّجاج وأطيب الطّعام من الملوك والنبلاء (الوزان، 1983، ص83)

مرض الافرنج المعروف بداء الزهري syhilis عدوى بكتيرية تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي الفمويّ أو الشّرجي، حمله اليهود المطرودون من بلاد الأندلس على بلاد المغرب (الوزان، 1983، ص84).

كانت هذه الأوبئة تسبب عجزا ديموغرافيا خاصة وأنّ الطّاعون مثلا كان يستهدف الشريحة العمرية المرشحة للإنجاب، علاوة على ذلك تأثّرت الحياة الثقافيّة والعلمية بموت العلماء والفقهاء بتلك الأوبئة والأمراض. في المقابل أدّت تلك الهجمات الوبائية إلى الاخلال، حيث دفعت الأمراض والأوبئة بالأهالي الناجين من الموت إلى ملازمة منازلهم أو الفرار إلى أماكن أكثر سلاما، ممّا انعكس سلبا على قيمة الأراضي واقتصاد البلاد.

لقد أدت الاضطرابات السياسية التي آلت بدورها إلى التدخل العسكري في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني إلى حالة من الانهيار العمراني، لم تشهد البلاد مثله على حدّ تعبير ابن خلدون: «انتقص

عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وختل الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن»، ثم يضيف: «وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض»¹²³.

ومن البديهي أن هذه الحروب أفضت إلى تخلخل وتزعزع مختلف القطاعات الإنتاجية، وفي مقدمتها الأراضي الزراعية، و ورشات الحرفيين وانتشار ظاهرة اللصوصية على طول الطرق والمسالك التجارية، وكلها مظاهر عدت من الجوائح والفتن التي لا يستطاع دفعها برأي بعض الفقهاء¹²⁴، وما دل أكثر على خطورتها ما ورد في قول صاحب الذخيرة: «فكثرت الفتن بين القبائل واشتد الخوف في الطرقات والمناهل ونبذ أكثر الناس الطاعة وفارقوا الجماعة وقالوا لولاتهم لا سمع ولا طاعة، فاستوى الدنيء والشريف وأكل القوي الضعيف وكل من قدر على شيء صنعه، ومن أراد شرا ابتدعه إذ ليس عليك يحوطهم ولا أمير يكفهم ويصدهم»¹²⁵ ثم يقول في موضع آخر: «فانقطع الحرث واشتد الغلاء في البلاد بسبب ذلك الإهمال والفساد»¹²⁶.

وعليه فإن الظاهر من خلال هذا القول أن تلك الغارات وإطلاق الأيدي والأعنة للسلب والنهب ظلت مذهبا في المعاش غير طبيعي، يمكن من الحصول على ثروات جاهزة تنتزع قهرا وغصبا من ممتهني الوجوه الطبيعية للمعاش بالتعبير الخلدوني سواء كانوا فلاحين، أو حرفيين، أو تجارا، حيث أصبحت تشكل موردا هاما في تدبير عيش القبيلة، وفي مالية الدولة لكونها تمثل رافدا لا يمكن الاستغناء عنه.

*ومن أهم الأحداث السياسية التي شهدتها تلمسان الزيرية نذكر:

السنة	الحدث	الآثار الناجمة	المصدر/المرجع
1242هـ/640م	توجه السلطان الحفصي أبو زكريا لاحتلال تلمسان	- أعمال النهب والقتل. - أخذ الجباية من أهلها	الزركشي(1966)، ص29

¹²³ - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص27.

¹²⁴ - أبو بكر بن عاصم (760هـ-829هـ)، تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام (المعروف بمتن العاصمة)، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ط03، 1346هـ/1928م، ص49. يقول ابن رشد: «كل ما أكل من الثمر على وجه لا يمكن الاحتراز منه ولا مدافعة من يريد بها من عسكر وعامة الناس ومفسدين فهو جائحة كالبرد ونحوه». ينظر: كتاب فتاوى ابن رشد، ص1614.

¹²⁵ - ابن أبي زرع، الأئيس المطرب، ص288.

¹²⁶ - ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص36.

	بعد احتلالها.		
ابن الأحمر (1962)، ص 66.	قيام بني توجين بعمليات النهب والفساد وإحراق القرى انتقاماً من السلطان يغمراسن	-حصار السلطان المريني لتلمسان. -تخريب قبائل بني توجين لتلمسان.	670هـ/1271م
ابن خلدون، (2006)، ص 194-197، ابن الأحمر (1962)، ص 86.	تخطيم القرى المجاورة لها، ونسف زروعها.	تحركات السلطان المريني يوسف بن يعقوب المتكررة على تلمسان وحصاره لها	689- 697هـ/1290- 1297م
ابن مرزوق، (2008)، ص 194، ابن خلدون (2006)، ص 197-198.	-مجااعة كبيرة -غلاء الأسعار	الحصار المريني لمدينة تلمسان	698- 706هـ/1298- 1306م
ابن خلدون، (2006)، ص 201، ابن أبي زرع، (1972)، ص 527.	أعمال التخريب وإتلاف للزرع	تحرك السلطان أبو سعيد المريني إلى تلمسان	714هـ/1314م
الزركشي (1966)، ص 72-73، ابن خلدون (2006)، ص 788.	-أعمال النهب والسلب. -بلغ عدد القتلى بين الطرفين 80 ألف شخص	حصار السلطان المريني أبو الحسن المريني المدينة مدة ثلاث سنوات	732هـ- 737هـ/1331- 1336م

ابن خلدون 261، (2006) ص	تخريب العمران وإتلاف الزروع	توجه أبو سالم لتلمسان لاحتلالها	1359هـ/م
ابن خلدون 277، (2006) ص	تخريب العمران	تحرك السلطان عبد العزيز ومحاولة الاستيلاء عليها	1369هـ/م
ابن خلدون (2006)، ص306.	تضرر المدينة من ذلك الصراع	الصراع حول الملك بين أبي زيان وأبي تاشفين	1389هـ/م

ومن أهم الكوارث والأوبئة التي عصفت بتلمسان الزيانية نذكر:

السنة	نوع الأزمة	المصدر أو المرجع
سنة 688هـ/ 1289	قحط شديد	العبدري، (2007)، ص09.
سنة 698- 706هـ/1298- 1306م	مجاعة عظيمة	ابن مرزوق، (2008)، ص194، التنسي (1985)، ص130-131، ابن مريم (1986)، ص126، 27.
748-749- 750هـ/1348- 1349م	الطاعون الجارف	ابن مرزوق، (2008)، ص187، ابن خلدون (2007)، ص64- 65، ابن مريم، (1986)، ص126.
سنة 776هـ/	مجاعة شديدة بسبب	ابن قنفذ، (1965)،

ص 149.	هبوب رياح ذات إعصار	1374م
القليصادي (1982)، ص 105، ابن مريم، (1986)، ص 43، التبكتي (1351هـ)، ص 630، التبكتي (2004)، ص ص 60-61.	الطاعون	سنة 845هـ/ 1441م
ابن مريم، (1986)، ص 224، التبكتي (1351هـ)، ص 547.	الطاعون	سنة 871هـ/ 1466م

*الهجرة والنزوح القسري للسكان نحو الجبال والمرتفعات وبخاصة الفلاحين:

إن توالي الحروب والقتال وعدم الاستقرار السياسي وغارات القبائل المتحاربة، فضلا عن المكانة الهامة التي اكتسبتها الأرض بخصوبتها في مجمل الأهداف الأساسية للأطراف المتحاربة، كلها عوامل أفضت إلى عزوف الفلاحين عن سكنى المنبسطات، وتركها في أيدي المحاربين «لا يشاركون فيها غيرهم»¹²⁷ واللجوء إلى المناطق الآمنة، إذ عادة ما شكلت الجبال والمرتفعات المجال الأكثر استقطابا لهؤلاء لأنها حسب ابن خلدون «بمنجاة من عيثم وفسادهم»¹²⁸، بينما البساط متى اقتدر عليها المحاربون «بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي، وانحراف السياسة، إلى أن يقرض عمرانهم»¹²⁹.

وتشير المصادر أن بعض قبائل المغرب الأوسط قد هجرت قسرا من طرف سلاطين بني زيان، مثلما حصل مع زناتة التي اعتصمت بالجبال والمرتفعات، وفي هذا الصدد تقول الرواية: «لما استقل يغمراسن بأمر تلمسان والمغرب الأوسط وظفر بالسلطان وعلا كعبه على سائر أحياء زناتة، نفسوا عليه،

¹²⁷ - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 174. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 290. الذخيرة السنوية، ص 65.

¹²⁸ - ابن خلدون، المقدمة، ص 122.

¹²⁹ - المصدر نفسه، ص 123.

فناذبوه العهد، وشاقوه الطاعة، وركبوا له ظهر الخلف والعداوة، فشمّر لحربهم ونازلهم في ديارهم، و أخرجهم في أمصارهم ومعتصماتهم من شواهد الجبال ومتمنع الأمصار»¹³⁰. وهذا يدل على أن المرتفعات هي ملجأهم الوحيد لما تتوفر عليه من غابات كثيفة وكهوف ومسالك ضيقة، وبذلك يصعب اللحاق بهم.

كما أنّ قيام أمراء بني زيان بنهج سياسة إقطاع الأراضي للقبائل منذ اكتساحها المجال الخصيب وما رافق ذلك كله من أشكال الاستغلال والغصب والتعدي، مثلما تناولتها كتب النوازل¹³¹، أفضت إلى « قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر»¹³²، مما زاد من تدهور النشاط الفلاحي وتراجع مردوبيته.

ونتيجة لهذه الأوضاع المتأزمة، أفصحت لنا مصادر المرحلة عن زيادة الفارين من اليد العاملة الزراعية الخبيرة عن خدمة الأرض و التحصن بالجبال¹³³، حيث أصبح الحديث متواترا عن بواد أضحت «مهجورة» وقصور تكاد تكون «غير مسكونة»¹³⁴، ومجاشر «خلت وانجلى عنها أهلها»¹³⁵، وعن رعايا «أجفلوا إلى الحصون»¹³⁶، مثلما ذكره الوزان عن مدينة مستغانم قائلا: «حتى أنها فقدت ثلثي 3/2 أهلها في وقتنا الحاضر». ثم يضيف قائلا: «وفي خارجها عدة بساتين جميلة، لكن معظمها مهجور»¹³⁷،

¹³⁰ - ابن خلدون، العبر، ج07، ص ص106-107. ونفس الشيء سيتكرر مع عثمان ابن يغمراسن عندما غزا قبيلة مغراوة سنة 693هـ/1293م، حيث استولى على «أمصارهم وضواحيهم وأخرجهم عنها وألجأهم إلى الجبال». ينظر: المصدر نفسه، ج7 ص90. التنسي، المصدر السابق، ص129.

¹³¹ - سنل إبراهيم العقباني: «عن رجل تعدى على أرض مجشرها على وجه البغي والظلم فأنكر عليه ذلك ونهى عنه، فصمم على حرثها»، وفي نازلة أخرى سنل أبو الفضل العقباني عن غاصب تعدى على مكثري للأرض وحرثها لنفسه». ينظر: المازوني، المصدر السابق، ج02، ص65، ص76.

¹³² - ابن خلدون، المقدمة، ص248.

¹³³ - داودي الأعرج، تطور الفلاحة في المغرب الأوسط ما بين القرنين الثاني والسادس هجريين ق12/08م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2016-2017م، ص110.

¹³⁴ - الوزان، المصدر السابق، ج01، ص217.

¹³⁵ - محمد بن غازي العثماني، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تح: عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط02، 1408هـ-1988م، ص40.

¹³⁶ - ابن خلدون، العبر، ج07، ص472.

¹³⁷ - الوزان، المصدر السابق، ج02، ص32.

ومثلهم سكان مدينة مازونة¹³⁸ «حتى أصبحت اليوم قليلة السكان»¹³⁹. وكل هذا بسبب مضايقة الأعراب، وانتزاع الأراضي من السكان الأصليين، وضعف الدولة.

وفي نفس الصدد أفصحت لنا كتب النوازل عن مشاكل جمة واجهت الفلاحين مثل: «قد فر بنفسه وبيعاله، وبما خف من متاعه»¹⁴⁰، وعن أراضٍ صاحبها غائب¹⁴¹، وعن قرى فر ساكنها «بماله وبما خف من متاعه»¹⁴².

*والجدول التالي يظهر لنا كثرة ساكنة الجبال في مراحل ضعف الدولة:

اسم الجبل	موقعه	المصدر والصفحة
جبل ونشريس	بلاد توجين	كاربخال، المصدر السابق، ص 360-361. الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 45.
جبل مطغرة	سنة أميال عن ندرومة	كاربخال، نفسه، ج 2، ص 351. الوزان، نفسه، ج 2، ص 43.
جبل بني يزناسن	بين قفر كرط وانكاد	الوزان، نفسه، ج 2، ص 43.
جبل ولهاصة	قرب هنين	الوزان، نفسه، ج 2، ص 44.
جبل مغراوة	قرب مستغانم	نفسه، ج 2، ص 44.
جبل ورنيد	قرب تلمسان	نفسه، ج 2، ص 44.
جبل أغبال	قرب وهران	نفسه، ج 2، ص 44.

المحور الخامس:

¹³⁸ - كانت مازونة عرضة للتخريب من قبل ملوك تونس تارة، ومن قبل الثوار تارة أخرى، والأعراب الذين أذاقوا الويل لأهلها. ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 36. كاربخال، المصدر السابق، ج 2، ص 359.

¹³⁹ - الوزان، المصدر نفسه، ج 2، ص 36.

¹⁴⁰ - المازوني، المصدر السابق، ج 2، ص 26.

¹⁴¹ - المصدر نفسه، ج 2، ص 75.

¹⁴² - الونشريسي، المعيار، ج 2، ص 116.

نماذج من مدن المغربيين الأوسط والإسلامي ومدى مطابقتها لشروط اختيار مواضع التأسيس وضوابط التخطيط والتحصين:

المحاضرة السادسة - نموذج من مدن المغرب الإسلامي:

❖ نموذج؛ حاضرة القيروان:

❖ الموقع والموضع:

القيروان لغة: هي معظم العسكر والقافلة من الجماعة، وقيل أنه لفظ فارسي معرب أصله من كلمة كروان وهو بالفارسية القافلة، وهذا ما رجحه محمد حسن، رغم أن النطق المحلي له، وهو القروان تطابق مع معنى آخر وهو الظهر، وهو ما تناسب بدوره مع موضع المدينة الواقع في سهل فيضي على مرتفع صغير، على أن هذا النطق المحلي لا يغدو أن يكون تخفيفا للاسم الوارد في كل المصادر المكتوبة بنفس الكيفية وهو القيروان، حيث عسكر عقبة بن نافع، وعقبة كان قد استحضر التسمية وهي ليست جديدة، إذ يذكر بن عبد الحكم أن عبد الله بن سعد الذي قتل جرجير في 27هـ/ 647م، رجع إلى مصر ولم يول عليهم أحدا ولم يتخذ بها قيروانا؛ كما استعمل بن عبد الحكم كلمة قيروان عند الحديث عن الفسطاط، وكان معاوية بن خديج قد بنى قيروانا في القرن، ثم رجع قافلا إلى قمونية، وبنى بناحية القرن مساكن وسماها قيروانا، ويتضح من هذا أن فكرة الاستقرار كانت موجودة منذ 45هـ/ 665م، وأن الاختبار تحدد في إقليم قمونية، ولما جاء عقبة بدأ التنفيذ، وقد ظهر من خبر للهمداني أن اسم موضع القيروان هو قمونية. ويعرفها الحموي كالتالي: "القيروان معرب وهو بالفارسية كاروان وقد تكلمت به العرب قديما...والقيروان مدينة مصرت في الاسلام في أيام معاوية، ولم يكن القيروان علما بل اسم جنس يعبر به عن المعسكر"، وقيل الجيش بنفسه.

وقد اختلف في لغة العرب حول لفظ القيروان فقبل هي موضع اجتماع الناس و الجيش واسم الجيش هذا قد أصبح بدون تردد و باتفاق كل القواد الذين شاركوا في تأسيس القيروان علما لعاصمة افريقية، والملاحظ أن هناك تقاربا بين كلمة "القيروان" وأسماء المواضع الأخرى التي ذكرت عند الحديث عن غزوات معاوية بن خديج وأبي المهاجر دينار، حيث نجد شبيها واضحا بين القيروان

والقرن وتاكروان ودكروور، وقد أضاف ابن عساكر تسمية أخرى بربرية وهي أبتكروان وإن كان يتعلق بالموقع الذي نزله أبو المهاجر وبني عليه مدينة، إلا أن ابن عساكر يقدم شعر الأحد رجال الفتح وهو زائد بن الصلب الغساني لمده موسى بن نصير يرد فيه اسم القيروان؛ و قد يكون من الأفضل اعتبار أن تسمية القيروان هي تسمية عربية لا علاقة لها باللغة البربرية. لقد عنون المنجي الكعبي موسوعته باسم "القيروان" وتحدث في فاتحتها عن روعة هذا الاسم ومدلوله يقوله: "سواء أكنت عربي اللسان أم غير عربي اللسان، فإن اسم القيروان من سر الفصاحة وسحر الإيقاع ما لا تخطفه الأسماع أو تنكره الطباع، وله مع ذلك من رائع الإيحاء وغريب الاتفاق ما يجمعه ولفظ القرآن الكريم من جامع اللفظ، وما يجمعه كذلك من جامع المعنى والمبنى بلغات الفاتحين، من عرب وعجم و بربر، ما لا يخفى عن الأفهام أو لا يستقيم معه البيان، فهو فارسي معرب وإن شئت بربري معرب بمعنى المعسكر وعظم الجيش، وهو الغرض الأصلي من تأسيس المدينة، مدينة القيروان، قاعدة الفتح في افريقية والمغرب...لقد قيل إن الأسماء هي الأرواح وروح القيروان هي روح دينية قبل كل شيء، فقد كان الإيمان وراء كل شأن من شؤونها، ابتداء من تقنية موقعها للبناء وتأسيس أول قبلة بها، وانتهاء بالدعاء لها بمغالبة الحدثان والخلود مدى الزمان"، وقيل محط أثقال الجيش وقيل هي الجيش نفسه، والمعنى متقارب.

1- مراكز التعمير السابقة لمجيء العرب:

تقع القيروان في سهل فسيح يحده غربا جبل وسلات وشمالا منطقة سهلية (دون 100 متر) ومن الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي مجموعة من السباخ منها: سبخة الكلبية التي ينتهي إليها واد زرود ومرق الليل وسبخة سيدي الهاني وسبخة الشريطة وجنوبا سهل ومرتفعات (بين 100 و200 متر) تعتبر امتدادا لجبال شراجيل (غرب و شمال قرية سيدي علي بن نصر الله)

وهذا السهل (حوالي 60 مترا فوق سطح البحر) سمته المصادر قمونية، فقد قال المالكي: (وكان في موضع القيروان حصن لطيف للروم يسمى قمونية)، وهو ما أكده أيضا محمد بن علي بن شباط التوزري بقوله: "وتوفت في تلك الغزاة بقمونية بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب بموضع من

القيروان يسمى اليوم مقبرة قريش"، وذكر صاحب معجم البلدان: "مدينة افريقية كانت موضع القيروان قبل أن تمصر القيروان"، لكن البكري جعل من قمونية كورة توافق كورة قمودة، وأعطى أبو العرب لهذا الاقليم ساحلا وهو "ساحل قمونية". فقمونية إذن هي اسم موضع القيروان قبل تمصيرها أو اسم سهل القيروان في العهد البيزنطي، وكانت أوسع في العهد الروماني خاصة أنها كانت من أملاك الامبراطور وهو ما جعل أحد المؤرخين يعتبرها إقليما شاسعا أو مقاطعة كبيرة فيها حصون وقرى، فهل كانت قمونية إحدى هذه المدن أو القرى الكبيرة، وهو ما يقابل ما ذكره المالكي "حصن لطيف للروم يسمى قمونية"، ويؤيد جون دييوا فكرة الاقليم: "والمزاق Byzacène الغنية كانت تثير شهية جيرانها الرحل من الجنوب وسكان الجبال الغربية وخاصة من طرف قبائل "لواتة"، وبقيت غنية رغم الضرائب الثقيلة والأوبئة، وفي الفترات الحرجة يحتمي المزارعون بالحصون والقلاع، وقد أكدت دراسة حديثة أن قمونية إقليم جغرافي يناسب حوض واد مرق الليل، يحده شرقا القيروان و غربا دوار بيوض، و إذا كان هذا التحديد الجغرافي يناسب العهدين الروماني والبيزنطي، فإننا نرجح أن تكون المصادر العربية تقصد بقمونية قرية أو حصن في موقع القيروان الحالي وأن سهل القيروان (المزاق في المصادر العربية) هو مجال هذه القرية أو المدينة الزراعي. ومن أهم مراكز التعمير قبل مجيء العرب نذكر:

***قمونية:** موضع القيروان، ذكره المالكي... وتؤكد الدراسات الأثرية ما ذكرته المصادر العربية حول وجود تعمير سابق وعدد من السكان استدعى وجودهم بناء كنيسة.

***قصر الماء:** ذكره ابن عبد الحكم مرتين عندما عزل عقبة من طرف أبي المهاجر: "فخرج عقبة حتى أتى قصر الماء فصلى" ثم عند الحديث عن عودة موسى من فتح الأندلس "و نزل قصر الماء وضحي هناك"، ولا نعتقد أن هذا القصر قد تم بناؤه من طرف عقبة أو بعده لأن المصادر لم تذكر ذلك.

***موضع رقادة:** في سهل خصب في الجنوب الغربي للقيروان، اكتشف فريق من الباحثين على بعد كيلومتر من قصر البحر مقبرة رومانية تحتوي على 78 قبرا و خزف أحمر يعود إلى ما بين القرن الأول و بداية القرن الرابع للميلاد وأكثر من 500 مصباح.

*موضع الأصنام: موضع في جوف القيروان على ثلاثة أميال، ذكرته المصادر عند الحديث عن معركة سنة 124هـ/ 742م ، وذكر التجاني الأصنام في مصب وادي زرود مستشهدا ببيت من الشعر قيل في نسب وشاح بن عامر: صنعت صنيعا ضاع في نجل عامر... كما ضاع في الأصنام واد زرود و وادي زرود في قبلة القيروان بينها و بينه أميال يسيرة، فإذا انتهى إلى الأصنام انتشر في سبخة هناك متسعة ضاع ماؤه، فلم ينتفع به أحد.

*الشريشرة: توجد بقايا قناة رومانية في واد الموتى (ملتقى واد الجريويلة بواد الشريشرة)، وكانت تنقل الماء من بئر الأدين إلى إحدى القرى في سهل القيروان.

*ذراع التمار: هضبة خصبة على بعد حوالي 4 كيلومتر شمال القيروان وكانت المنطقة المحيطة بمدينة القيروان تحتوي على مواقع أثرية أخرى غير هذه المذكورة، فقد تم بناء القيروان من بادئ أمرها بناء متينا أعيد فيه استخدام المواد المحصلة من بقايا المباني القديمة، وهي متوفرة بكثرة في ذلك الموقع.

2- أهمية الموقع و أسباب اختياره:

هل أحسن عقبة بن نافع اختيار موقع القيروان؟ يجيب حسين مؤنس بأن اختيار المكان كان موفقا، وهو يخالف رأي ابن خلدون الذي يرى أن الخراب والانحطاط مصير كل مدينة مصرها العرب، يقول صاحب المقدمة: "والسبب قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه و المزارع والمراعي، وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم وما يقارب من القفر ومسالك الظغن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن و م تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم"، ويمكن تفسير هذا الرأي بالتطورات الحاصلة في الغطاء النباتي والوسط الطبيعي لناحية القيروان في القرن الثامن الهجري.

والثابت أن مدينة القيروان بنيت في سهل رسوبي خصب، و تعرف المنطقة تساقطات غير منتظمة تتراوح بين 250 و 300 ميلمتر في السنة وهي أمطار عنيفة تسقط في أيام قليلة وتسبب في فيضانات مدمرة ذكرتها المصادر و تشهدا المنطقة دوريا.

إذن كان اختيار موقع القيروان مرتبطا بظروف الانتشار العربي وهي من المدن المستحدثة (الأمصار) أي نتيجة عمل إرادي اختياري لشخص اختار موقعها وسط حدودها وارتأى شكلها المستقبلي، فهل كان الاختيار لعقبة فقط أم هناك من ساعده في ذلك؟ و هل كان الخليفة معاوية بن أبي سفيان بعيدا عن قرار تمصير القيروان؟ يبدو أن معاوية كان يعطي لولاته وقواده حرية التصرف.

لقد كانت المنطقة قليلة العمران فيما يبدو، فهل كانت ملكية عمومية هجرها مستغلوها نحو المدن الساحلية: كسوسة (Hadrumatum) وغيرها أو أنها مهجورة نتيجة النهب الذي تعرضت له، فأقفرت من أهلها بعد خروج القبائل البربرية الكبيرة في المزاك وجهة طرابلس في السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطي عن حكم قرطاج، و قد زاد هلاك جرجير وسقوط عاصمته سيطة في الفوضى و الخزازات المزمنة؟ ومنطقة القيروان ليست بعيدة عن خط الدفاع الثاني الذي يستند لسلسلة جبال الظهيرية التونسية، وكان يتكون من قلاع و حصون في سببية و ممس و جولاء، و يتجلى فراغ المنطقة من السكان حسب أحد الباحثين في تناقص عدد الأسقفيات. ومهما يكن من أمر، فإن منطقة القيروان على طريق القوافل و هي الممر الجيد للوصول إلى افريقيا القديمة، و قد احتوت على مجموعة من الآثار والمستغلات الفلاحية قبل مجيء المسلمين.

وهذه المنطقة التي ذكرنا سابقا أنها سهل فيضي تحيط بها غابة زيتون ومجال رعوي وهي بعيدة عن البحر تحاشيا لهجوم بيزنطي مفاجئ وهي على اتصال بالفسطاط (قاعدة الارتكاز) وأيضا بعيدة عن المدن القديمة التي كان العرب يخافون الذوبان و الانصهار فيها.

ولا يستبعد أن يكون عقبة قد شارك مع أبيه في فتح مصر، كما أرسله عمرو بن العاص لفتح الواحات وأقام في طرابلس وبرقة وفزان وبلاد كوار، وكان من القادة العرب المطلعين على شؤون البلاد، ولا شك أنه كان يتابع تحركات الأسطول البيزنطي في المتوسط ويعرف سيطرة البيزنطيين على هذا البحر ثم إنه اتعظ من الحملات السابقة وأدرك الصعوبات التي واجهتها في فتح افريقية وقد يكون الخليفة معاوية بن أبي سفيان أو واليه على مصر مسلمة بن مخلد أمده ببعض التوصيات لذلك كله دخل عقبة بن نافع افريقية بمشروع طموح: إنهاء مرحلة المد والجزر التي ميزت حملات الفتح

السابقة والتأسيس لمرحلة جديدة: إدخال افريقية في الدولة الإسلامية وتركيز حامية بها تضع حدا لنقض البربر لعهودهم كلما عاد جيش الفتح إلى الفسطاط أو المشرق "فجمع إليه من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد من معاوية (عشرة آلاف) وسار إلى افريقية، ونازل مدنها فافتتحها عنوة ووضع السيف في أهلها وأسلم على يديه خلق من البربر".

ويذكر صاحب معالم الإيمان أن عقبة قتل من بها (افريقية) من الروم وأصناف البربر والأفارقة وقال لأصحابه: "إن افريقية إذا دخلها أمير تحرم أهلها بالإسلام، فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر، و إني أرى أن أتخذ بها مدينة نجعلها معسكرا وقيروانا، تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر"، ويؤكد قول بن ناجي من وجود تصور في ذهن عقبة بن نافع وربما أيضا الخليفة معاوية بن أبي سفيان لمستقبل افريقية لذلك بدأ في انجاز ما قرر وقد وصل، بجيشه إلى ناحية القيروان.

ولم يكن عقبة أول من فكر في الاستقرار في هذه الناحية، لقد مر بها عبد الله بن سعد ووصلها معاوية بن حديج، وقد اتخذها معسكرا في غزوته الثالثة الهامة (45هـ/ 665م)؛ كما اقتحم فيها حصن جلولاء الذي يبدو أنه آخر المعامل الحصينة لبيزنطيين افريقية في المزاق و بسببه اتخذ "قيروانا" حول القرن لكن هذا المكان لم يعجب عقبة فركب و الناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم، وكان قد اتفق مع الناس والأغلب أن يكونوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يكون أهلها مرابطين¹⁴³. إذن لقد جعلت هذه المدينة لحماية طريق مصر وهي التي يجب أن تبقى مفتوحة للمدد وصالحة للانسحاب.

ومهما يكن من أمر فإن الموضع الذي اختير لبناء القيروان لم يقع اختياره اعتباطيا وأن عملية الاختطاط والبناء لم تكن عفوية، بل أن الظروف الزماني كان ملائما لانتصاب القيروان في ذلك

¹⁴³ - و يواصل ابن عذارى النقاش الذي دار بين عقبة و أصحابه حول الموقع: "و قالوا: نقرب من البحر لئتم لنا الجهاد و الرباط، فقال عقبة إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة، فيملكها، و لكن اجعلوا بينها و بين البحر ما لا يدركها صاحب البحر، إلا و قد علم به، و إذا كان بينها و بين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة، فهم مرابطون، فلما اتفق رأيهم على ذلك قال: قربوها من السبخة فإن دوابكم الإبل، و هي التي تحمل أثقالكم فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو و الجهاد، حتى يفتح الله لنا منها الأول فالأول، وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها، آمنة من عادية البربر و النصراري، ابن عذارى: البيان، المصدر السابق، ج1، ص 19-20.

الموضع النهائي، حيث أن منطقة "بيزان" أو كورة مزاق قد هانت للعرب بعد معركة سببلة التي فتحت المجال بسيطرة العرب على الجزء الجنوبي للبلاد التونسية بعد أن انسحب الروم وانكمشوا وراء خط دفاعهم الثاني الذي يفصل بينها وبين كورة افريقية القديمة، وحسب تقدير محمد الطالبي نتبين العلاقة بين موضع القيروان والمسالك التي اتخذها العرب في سيرتهم إذ أن المسالك التي تتجنب الجبال والسواحل كلها تمر حتما بموضع مدينة القيروان اليوم وإلى جانب كون الموضع يمثل ملتقى للطرق القادمة من المشرق ويشرف على جزء هام من البلاد يبرز اختياره دراية استراتيجية متجسدة في القادة العرب الذي رأوا أن أحسن مكان ينشؤون به قاعدة الانطلاق، هي منطقة القيروان...

وتشير المصادر أن مؤسس القيروان حاول أن يراعي جملة من القواعد المعروفة يومئذ خلال تأسيسه للمدينة، من ذلك مواصلة سنة الاختطاط أي بناء مدن الهجرة كالكوفة و البصرة والفسطاط... و مراعاة النواحي الأمنية من خلال توسطها بين الجبال والسواحل وتقريبها من السبخة من جهة ثانية، فهذا بن عبد الحكم يوضح ذلك متكلماً على لسان عقبة فيقول: "أني أرى أكثر دوابكم الابل وهي ابلنا على باب قصرنا في مراعيها آمنة من عادية البربر والنصارى" ويجدر بنا أن نلاحظ أن القيروان قد تأسست في ظرف كان فيه جزء هام من افريقية غير خاضع للسيطرة العربية، و بذلك تكون المدينة تهديدا مباشرا للقبائل البربرية أكثر منها إلى القوات البيزنطية كما تجسد هذه المدينة إرادة جديدة و قطيعة مع الماضي بالنسبة إلى افريقية...

وانطلاقاً من هذا المستوى ستأخذ المنطقة طريقها نحو الأسلمة والتعريب أي الاخضاع العسكري والسياسي والاداري الايديولوجي الشيء الذي لم يتم بالسهولة المتوقعة، ولنا أن نتساءل إلى أي مدى استجابت مدينة القيروان إلى الأهداف التي يرمي إليها العرب من خلال تشييدها في تلك الظروف و في ذلك الموضع، ويمكن تلخيص الأهداف في النقاط التالية:

* ضمان عملية الفتح والإلحاق و الاخضاع انطلاقاً من القيروان حيث ستصبح القيروان مركز الانطلاق للحملات نحو الغرب.

* تدعيم النفوذ السياسي والإداري العربي من خلال جعل القيروان عاصمة للإقليم المفتوح.

كل هذه الأهداف ستتأكد رغم الأزمات التي ستشهدها القيروان.
فكيف تم تأسيس القيروان؟ و ما هي الخطط التي وضعت عند التأسيس؟

3- تصميم وتخطيط المدينة وتمصيرها:

لقد تغيرت الاستراتيجية العربية تجاه افريقية إذ لا مجال للكر والفر ولا مجال للاكتفاء بالغنائم والأسلاب بل أن النية بدأت تتجه نحو الاستقرار من خلال تشييد مدينة جديدة تكون نقطة ارتكاز ومركزا متقدما يوفر امكانية التراجع والاستراحة بالنسبة إلى المقاتلة ومخزنا للأسلحة ومقرا للظغن والمؤن والعدة والعتاد، أي بعبارة أخرى مركزا عسكريا يوفر عدة حاجيات "الوجيستيكية" ظرفية مرتبطة بتوغل الجيش ويوفر حاجيات إدارية وسياسية ويضمن السيطرة العربية على المنطقة عسكريا وإداريا وسياسيا. وقد برزت هذه النية في فترة ولاية عقبة بن نافع مؤسس القيروان وأول قائد عربي يتوغل باتجاه الغرب حتى المحيط الأطلسي. لقد اختار عقبة موضع القيروان لأسباب استراتيجية و طبيعية و كان تمصيره لهذه المدينة لا يخلو من مغزى سياسي أصبح من تقاليد قواد الجيوش العربية بعد فتوحاتهم تأسيس مدينة إسلامية خاصة بعناصر الجيش الفاتح و أبنائهم و أحفادهم على غرار الكوفة والبصرة و الفسطاط، و قد ذكر عقبة بمفخرته هذه أمام معاوية بن أبي سفيان بعد عزله سنة 55هـ/ 675م: "فتحت البلاد وبنيت المنازل و مسجد الجماعة و دانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزي".

ومرت عملية التمصير بالمراحل التالية: التنقية والاختطاط، إذ بعد اتفاق عقبة وأصحابه على المكان أمر بقطع شجره وحرقه، واختط في ذلك الموضع، ومثل العديد من المدن أحيط تأسيس القيروان بأسطورة عقبة المستجاب الذي نادى السباع والوحوش بالارتحال مدة ثلاثة أيام، و نتساءل هل تكفي الأيام الثلاثة لوضع الخطط و المناهج و التحضير لبناء المصر الجديد؟

قد تكون كافية للتنقية ووضع الخطط والمناهج والتحضير لبناء المصر الجديد، والمرجح أن الأيام

الثلاثة كافية لاختطاط المؤسستين اللازمتين لكل مصر اسلامي المسجد الجامع و دار الإمارة.

و قد رأينا عند الحديث عن الموقع أن عقبة لم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج بناه، وذلك لأن له فكرة تأسيس مصر جديد يكون بعيدا عن مباغيات البحر، و مركزا لانطلاق الجنود، وهذه الفكرة مصاحبة لعقبة داخلية في مشروعه (غزو افريقية) فما هو مفهوم المصر عند عقبة؟ كان عقبة يعرف أهمية إقامة مدينة القيروان إذ كان يرى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد، وقد يكون عقبة بحث هذه المسألة مع مرافقيه من الصحابة والقواد ولاشك أنه أعلم الخليفة معاوية بن أبي سفيان (40-60هـ/ 660-681م) بمشروعه و طموحاته في إرساء الإسلام في بلاد وجد القادة السابقين له صعوبة في تمهيدها، ولا بد أنه فكر في الأموال التي ستصرف في البناء والتهيئة التي نرجح أنها كانت من أموال الفتح إذ فتح عقبة مغمداً وودان وجرمة وقصور فزان وكوار وقصر خاوار وأرض مزاتة وغدامس وقفصة وقسطيلية، وعموماً فإن عقبة لا يختلف عن قادة الإسلام الأوائل مؤسسي المدن سعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص الذي يرجع إليه كثير من الفضل في ظهوره على مسرح التاريخ، فما هو مفهوم المصر لدى الفاتحين الأوائل؟

المصر: الحاجز و الحد بين الشئيين، و قال الليث (بن سعد)، المصر في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء والصدقات من غير مؤامرة للخليفة الجوهري فلان مصر الأمصار كما يقال مدن المدن، و المصران الكوفة و البصرة.

وهذا التعريف ينطبق على مدينة القيروان فهي مدينة مستحدثة في طرف البر، ارتبطت بالسلطة السياسية وبظروف الفتح و هي من هذه الناحية لا تختلف عن البصرة سنة 16هـ/ 637م والكوفة سنة 17هـ/ 638م و الفسطاط.

ونلاحظ أن ظاهرة التمصير لم تختص بما القيروان بل هي ظاهرة عامة تزامنت مع الفتوحات الاسلامية والهجرات التي تلتها أو التي صاحبته، فكيف تم تصميم و تخطيط مدينة القيروان؟ والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو إلى أي مدى ينطبق مفهوم مصطلح المدينة في المنظومة الحضارية الاسلامية على القيروان هذه المدينة "المصر" التي أصبحت تتمتع بكل مقومات المدن

الاسلامية من مسجد ودار إمارة وخطط...و يعد المسجد إلى جانب دار الإمارة ضرورة حيوية لوجود المدنية الاسلامية لما يكتسيه من صبغة دينية و ثقافية بالنسبة إلى المسجد و من طبيعة سياسية وإدارية بالنسبة دار الإمارة و م تشذ القيروان عن القاعدة العامة لتأسيس المدن وتطورها، إلى جانب البعد المقدس التي اختصت به القيروان، حسب ما تشير إلى ذلك المصادر، نظرا لكونهما أول مدينة اسلامية في شمال افريقيا...وقبل تأسيس القيروان لم يكن بافريقية قيروان و لا مصر جامع ويعود الفضل إلى عقبة بن نافع مؤسس ومخطط المدينة وإليه يعود الفضل في إضفاء الصبغة القدسية على مدينة من خلال الدعاء لها لما يروي الرقيق القيرواني: "ركب في وجوه العساكر و التابعين والعتاد فدار بهم حول مدينة و أعرها بالمطيعين العابدين"، و يذكرنا تصرف عقبة بما كان يفعله مؤسسو المستعمرات اليونانية "oikistès" الذي يقود جماعة من المهاجرين باتجاه موضع ملائم لتأسيس مدينة مستعمرة تحت اشراف إحدى المدن اليونانية..و كان عقبة هو الذي غزا افريقية و اختط القيروان.

على حد رواية البلاذري: "و كان أول من بناها عقبة بن نافع الفهري، اختطها ثم بنى و بنى الناس معه الدور و المساكن و بنى المساجد الجامع بها، و هذا عقبة بن نافع يخاطب معاوية معاتبا، بعد أن عزل عن الولاية: فتحت البلاد و دانت لي بنيت المنازل و اتخذت مسجد الجماعة و سكنت الناس، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزي".

لقد اختطت القيروان بعد فترة طويلة من بناء الكوفة و البصرة و الفسطاط، و رغم أن اختطاط الكوفة يعتبر ابتكارا فإنه يعود إلى جذور قديمة بابلية أساسا، و هو جيد من حيث التصور و الإنجاز يراعي التركيبة القبلية للعرب الفاتحين، و قد أخذت الجوانب الدينية و السياسية و الحياة الجماعية بعين الاعتبار عند تأسيس الأمصار الاسلامية، و نعتقد أن بناء البصرة كان أول تجربة لتخطيط المدن في العصر الاسلامي الأول، وقد استفاد المسلمون من هذه التجربة، استفاد المسلمون لما قاموا بتخطيط الكوفة المربعة الشكل، وكان أول شيء خط بالكوفة وبنى المسجد في مربعة غلوة من كل جوانبه، وكذلك عندما اختطوا الفسطاط ثم القيروان، وقد فرض أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب على القادة الفاتحين: "لا يزيدن أحدكم على ثلاث أبيات، و لا تطاولوا في البنيان، و الزموا السنة تلزمكم الدولة، كما أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعا وما يليها ثلاثين ذراعا، وما بين ذلك عشرين، و بالأزقة سبع أذرع، و في القطائع ستين ذراعا إلا الذي لبني ضبة".

فهل تواصل العمل بتوصيات عمر بن الخطاب عند اختطاط القيروان؟ يجب التأكيد هنا أن الأمصار الثلاثة الأولى بنيت في عهد عمر و كان يحاسب قواده و ولاته عن كل كبيرة و صغيرة، أما معاوية بن أبي سفيان الذي بنيت في عهده القيروان فإنه كان يستعمل من ساندته في صراعه ضد علي أي "العثمانية" و بالنسبة لمصر قاعدة الارتكاز لفتح افريقية فقد استعمل أكثر العثمانية تشددا معاوية بن حديج و مسلمة بن مخلد و قبلها عمرو بن العاص الرأس المدبر لحزب العثمانية أثناء الفتنة الكبرى، لكن هل كان عقبة مثل معاوية بن أبي سفيان في الأبهة القياصرة في الحكم و العيش؟

تجمع المصادر على تعلق عقبة بالفتوح والغزوات فقد قال لأولاده عندما عزم على غزو المغرب في ولايته الثانية: "إني قد بعث نفسي من الله، ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا لأن أمني الموت في سبيل الله"، وكانت السنوات التي قضاها في افريقية مغازيا البربر، متنقلا بين قبائلهم وواحاتهم، فرصة لتنمية مواهبه الحربية".

هل كانت هذه الخصال حاضرة عند تأسيس مدينة القيروان؟ هذا ما سنراه من دراسة تصميم المدينة، فهذا المعسكر الذي اتخذته جيش الفتح تحول تدريجيا إلى مدينة، و لكنه لم يكن مثل مساكن معاوية بن حديج في القرن بما أنه اختط ليكون مصرا يأوي جيشا كبيرا لفتح منطقة شاسعة و مجهولة نسبيا بالنسبة للعرب (المغرب) فما فعل عقبة عند بدء التأسيس؟

بعد اختيار الموقع و الموضع و حرق الأشجار و التشاور مع الصحابة المرافقين، أمر الناس بالتنقية والخطط و نقل الناس من الموضع الذي كان معاوية بن حديج نزله إلى مكان القيروان" وهذه التنقية تتطلب عدة أيام و كذلك نقل الناس بأثقالهم و إبلهم، و في هذه المرة فكر في الخطط، والمرجح أن عقبة استذكر خطط الفسطاط التي يعرفها جيدا و قد يكون استشار الصحابة الذين يعرفون الكوفة و البصرة حول الخطط و الطرق و المناهج و السكك و الساحات.

لكننا نعتقد أنه رجح خطط الفسطاط بالنسبة للقبائل و لم يتجاوز توصيات عمر في الطرق والمناهج، فاخطت أولا دار الإمارة ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم، فاخطته و لم يحدث فيه بناء، وكان يصلي فيه و هو كذلك.

و يقدم لنا المالكي توضيحا هاما حول مكان دار الإمارة إذ يقول: " و بنى دار الإمارة التي في قبلي الجامع"، وهذا يؤكد التواصل في تخطيط المدن الإسلامية من الكوفة الى القيروان: تركيز مؤسستي السلطة الدينية و المدنية وهو ما يمثل مركز المدينة الجديدة، و هذا المركز كان مربعا اعتمادا على الاشارة التالية:

- وجود أمصار سابقة مثل الكوفة التي كان جامعها مربعا والذي ترك في "مربعة غلوة من كل جوانبه" وكان مركز المدينة مربعا و يضم الى جانب الجامع و القصر الرحبة و الآري و السوق.

- بناء الجامع كأول مؤسسة كان تقليدا للرسول في المدينة و كان شكل مسجد الرسول مربعا ويؤثر وسط المدينة في بقية مكوناتها، و قد وردت المصادر ما يؤكد أن مدينة عقبة الأولى كانت مربعة: "تكون أقل من ثلاثة أميال في مثلها بلا سور، الجامع بموضع يسمى السماط الكبير وسط الأسواق في سرّة البلد"، و هذه الأبعاد تتناسب مع ما روي عن سحنون (ت 240هـ / 854م) الذي كان يتعجب و يقول مثل هذا البلد لا يكون له قدر ثلاثة أميال من كل ناحية، لكن البكري كان أكثر دقة في وصفه للمدينة إذ قال: "و كان سماط سوق القيروان قبل نقله إلى المنصورية متصلا من القبلة إلى الجوف، و طوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث و من الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل، و كان سطحها متصلا فيه جميع المتاجر و الصناعات، و كان أمر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك"، و ليس هناك تناقضا بين الإشارات الثلاث، فالمسافة التي يذكرها البكري مجمعة هي ميلان و ثلث أي 3 كيلومتر و 757 مترا اعتمادا على أن ميل البكري يساوي 1610 مترا، و يتفق سحنون مع المقدسي في أن ضلع المدينة لا يتجاوز ثلاثة أميال أي دون 4830م إذا اعتمدنا ميل البكري و دون 4440م إذ اعتمدنا الميل الروماني (1480م))، و قد يفسر النقص الملاحظ في الأبعاد التي ذكرها البكري بتطور المدينة إذا كان الترتيب فعلا من وضع هشام (105 - 125هـ / 724-

743م) لكن الإشارة الصريحة حول انقسام مدينة القيروان إلى أربعة أجزاء يفصلها شارعان رئيسيان متعامدان: الكاردو و الديكومانوس، ذكرها المالكي: "مربع السماط" الذي ذكر في مكان آخر باسم "الشارع الأعظم" و أيضا باسم "سماط القيروان" أو "السماط الأعظم" و مربع السماط هي الرحاب التي كانت تعترضه و تنفرع منها السكك الجانبية، و يرجح محفوظ الغديفي الشكل المربع للمدينة لوجود 4 أبواب أصلية، وقال صاحب البيان ثم أخذ الناس في بناء الدور و المساكن و المساجد، و عمرت و شد الناس إليها المطايا من كل أفق و عظم قدرها، و كان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع و ستمائة ذراع حتى كمل أمرها، ويقول الطبري أن عقبة هو أول الناس اختطها وأقطعها للناس مساكن و دورا و بنى مسجدها دون أن يعطينا أرقاما لكن ابن الأثير يقول أن عقبة أمر ببناء المدينة فبنيت و بنى المسجد الجامع و بنى الناس مساجدهم و مساكنهم و كان دورها ثلاثة آلاف باع و ستمائة باع، و تم أمرها سنة خمس و خمسين و سكنها الناس، و تجدر الإشارة أنه وقع توزيع الخطط داخل المدينة على غرار ما وقع في الكوفة و البصرة و ذلك حسب التقسيم القبلي للمقاتلة و عائلاتهم.

و من إشارات المصادر السابقة نفهم تقسيم المدينة الجديدة إلى خطط، فكيف كانت خطط القيروان؟ و هل يمكن تحديد الفضاء الجغرافي و البناء المورفولوجي للمدينة بالقدر الذي تسمح به المعلومات المتوفرة؟

خص عقبة كل قبيلة أو عشيرة بحج مستقل، قال المالكي: "أمرهم أن يقتطعوا و يختطوا"، يبدو أن المعنيين بالأمر هم رؤساء العشائر أو العرفاء الذين يبدو أن دورهم كان كبيرا في التهيئة والتقنية و تقسيم الخطط.

قلنا أن عقبة اتبع في تخطيط المدينة نفس الطريقة التي اتبعها الفاتحون من قبله عندما أنشأوا الكوفة و البصرة و الفسطاط و خص كل قبيلة بخطة مستقلة، فما هي الخطط والمنشآت العمرانية لمدينة القيروان؟

و للإجابة على هذا السؤال يمكن تقسيم هذه المنشآت إلى منشآت دينية و مدنية و فكرية

ومنها:

1- العمارة الدينية: و يأتي في مقدمتها:

● **المسجد الجامع:** اختطه عقبة ولم يحدث فيه بناء، و كان يصلي فيه و هو كذلك، فاختلف عليه الناس في القبلة، و يضيف البكري الذي نقل عن مصادر مفقودة الآن، أهمها تاريخ الرقيق وغيره أن أول من وضع محرابه و بناه عقبة بن نافع ثم هدمه حسان بن النعمان حاشى المحراب، نرجح أن عقبة بنى الجامع، و لم يبن المحراب، و قد يكون جامعاً كبيراً يتسع لآلاف المصلين (جيش عقبة وأهالي أفراد هذا الجيش وأتباعهم وعبيدهم) لكنه قد يكون بسيطاً من حيث المواد المستعملة في بنائه لأنه لا يمكن أن تؤسس مدينة و يدوم تأسيسها خمس سنوات دون أن يكون للمسلمين مسجد جامع، ثم أن عقبة ذكر ذلك للخليفة معاوية بعد عزله: "فتحت البلاد و بنيت المنازل و مسجد الجماعة"، و قد ذكرت المصادر اختلاف الناس في القبلة، و قالوا: "إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها"، فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم و مشارق الشمس، و بعد رؤية ركز لواءه وقال: "هذا محرابكم"، و نلاحظ هنا التحري في وضع قبلة الجامع، فرغم معرفة العرب بالبلاد أثناء فتوحات العرب السابقة و قد دامت سنوات، فإنهم أقاموا أياماً و أنا أقول أشهراً لذكر المصادر للصيف والشتاء و لكن القرار الأخير اتخذته عقبة و لم يكن صائباً فمحراب مسجد القيروان منحرف عن القبلة نحو الجنوب بخمسة عشر درجة، و تضيف المصادر أن هذا الجامع اقتدت به سائر مساجد المدينة، و لم تذكر شيئاً حول الجامع خلال الفترة المتراوحة بين عزل عقبة و مجيء حسان الذي أكمل فتح إفريقية و جزء هام من المغرب، فكان يقسم الفياء بينهم (العرب و البربر) و دون الدواوين و أمر بتحديد بناء المسجد الجامع، فبناه بناء حسناً و جدده في شهر رمضان سنة أربع و ثمانين، و يضيف البكري أن حسان حمل إليه الساريتين الحمراءين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب، و يقولون إن صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهباً، فابتدروا الجامع بهما، و لم يطرأ على جامع عقبة أي تغيير إلى حين زمن هشام بن عبد الملك، إذ كتب إليه عامله بشر بن صفوان الكلبي على القيروان يعلمه أن الجامع يضيق بأهله

و أن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فھر، فكتب إليه هشام يأمره بشرائها و أن يدخلها في المسجد الجامع، ففعل و بنى في صحنه ماجلا و هو المعروف بالماجل القديم بالغرب من البلاطات، و بنى الصومعة في بئر الجنان و نصب أساسها على الماء، واتفق أن وقعت في نصف الحائط الجوي.

● مساجد أخرى مشهورة: باعتبار القيروان مدينة المساجد، فقد ذكر ابن عذارى متحدثا عن تأسيس القيروان وجامع عقبة، ثم أخذ الناس في بناء الدور والمسكن والمساجد، وعمرت، وشد الناس إليها المطايا من كل أفق، وعظم قدرها، فما هي المساجد التي بنيت في الفترة الأولى من تاريخ القيروان؟ و ما هي مساجد القيروان بصفة عامة؟

ذكرت المصادر مجموعة هامة من المساجد وجدت في خطط القبائل، وبعضها ما زال موجودا إلى الآن، ولا شك أن المساجد الأولى كانت بسيطة، ولم تصمد أمام عوامل الطبيعة والمساجد الباقية تعود دون شك إلى فترات لاحقة وقد خضعت إلى ترميمات وإصلاحات كثيرة عبر العصور لكن الأماكن قد تكون هي نفسها بالنسبة إلى المساجد الهامة المشهورة و التي ذكرتها كتب الطبقات، ومن هذه المساجد:

- مسجد الأنصار: أو جامع الأنصار،- مسجد الزيتونة: بناه سنة 93هـ / 712م إسماعيل بن عبيد الأنصاري التابعي،-مسجد عبد الرحمن بن اسميفع بن وعلة السيائي،-مسجد أبي فتح،
- مسجد البهلول بن راشد،-مسجد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي،-مسجد بن أبي نصر،
- مسجد عون بن يوسف الخزاعي،-مسجد المقرعة: لعله نسب إلى أبي جعفر بن منصور،-
مسجد محمد بن سحنون،-مسجد عبد الجبار السرتي: من تلامذة سحنون،-مسجد السبت:
و يعرف بمسجد الدمنة، و هو بالدمنة، منسوب لأبي محمد الأنصاري،-مسجد أبي ميسرة،-
مسجد حنش الصنعاني: أنشأه التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني (توفي بالقيروان سنة 100هـ/
718م)، وهذا التابعي ولاء حسان بن النعمان على صدقات الناس بالقيروان، والمسجد الحالي أقيم على أنقاض المسجد الذي اختطه حنش بنفسه. - مسجد علي بن رباح اللخمي... وغيرها كثير.

المنشآت الدينية غير الاسلامية: عاشت في القيروان منذ تأسيسها أقليات غير اسلامية جلبتها التجارة أو العمل في مدينة بدأت تستقطب الكفاءات من أهل البلاد الأصليين للعمل في الدواوين قبل تعريبها مثل دار الضرب، و لما ازداد عدد هذه الأقليات المسيحية طالبت بإنشاء كنيسة، فقد طلب قسطاس النصراني من الفضل بن روح بن حاتم أن يأذن له في بناء كنيسة، فأذن له، فبنى الكنيسة التي يقال لها كنيسة قسطاس وقد تكون هناك كنائس أخرى للمسيحيين، وليس من الغريب أن توجد بيعة لليهود أو بيع بما أنه قد وجدت سوق لليهود.

● **المصليات:** هي الشكل الأول للمسجد: "فهي عبارة على ساحة متسعة مربعة في الغالب يحيط بجھاتها الأربع جدار قصير الارتفاع من غير سقف، و في قبلتها محراب بسيط الوضع و قد خصصت هذه المعالم للاجتماعات العامة كصلاة العيدين، و الاحتفال بالمواسم، و بيعة الأمراء و غير ذلك من المواكب التي تستدعي ساحات متسعة لاحتواء أعداد كبيرة من الناس". ومن أشهر المصليات:

- **مصلى باب نافع:** عند باب نافع، شرق جامع عقبة و قرب مقبرة باب نافع.
- **مصلى باب سلم:** و هو بقرب باب سلم مقبرة قريش (الجناح الأخضر حاليا) التي دفن فيها يزيد وروح أبنا حاتم المهلي و لعله أيضا مصلى العيد.
- **مصلى روح:** بباب أبي الربيع، في الطرف الشرقي من شارع السماط الكبير بين الوادي و الباب.-
- مصلى الجنائز:** عند باب تونس قرب آبار حديج.

وبهذه المصليات كان الولاة والأمراء يصلون على جنائز كبار العلماء لقرها من أبواب المدينة والمقابر، وقد لعبت هذه المصليات أدوارا أخرى كتجميع الجيوش أو الاستعداد للثورة فقد عسكر تمام بن تميم، عند مصلى روح بن حاتم، كما خرج أبو العرب و خرج جميع الفقهاء ووجه التجار إلى المصلى بالسلاح الشاك والعدة العجيبة التي لم ير مثلها، وضاق بهم الفضاء في إطار ثورتهم على الفاطميين مع أبي يزيد مخلد بن كيداد.

2- العمارة المدنية: و في مقدمتها نذكر:

● **دار الإمارة:** اختطها عقبة بن نافع في قبلي الجامع الأعظم، و اتخذ لها من الخمس ما يتخذ الأمراء لحرس المسلمين، وأعاد حسان بن النعمان بنائها أو ربما قام بتوسيعها في نفس الوقت الذي كان فيه يجدد جامع عقبة لأنه يعتبر المنظم لولاية افريقية، وتوفرت لديه الأموال واستطاع أن يفرض الأمن والاستقرار ومهد افريقية ووضع الخراج على البربر والعجم و هذا يتطلب مقرا للدواوين، وكانت هذه الدواوين حول دار الإمارة التي لا بد أن تكون قد توسعت إن لم تكن تجددت وكانت تضم مختلف مصالح الحكومة مثل ديوان الخراج و الجند و الرسائل و ديوان العطاء، وقد دامت مقر الحكومة ومسكن الولاة من طرف الأمويين والعباسيين إلى أن انتصبت الدولة الأغلبية لأن ابراهيم بن الأغلب اشترى موضع القصر القديم وابتنى قصرا وانتقل من دار الإمارة و صار إلى قصره بعبده وأهله وحشمه وأهل بيته، وأضحى دار الإمارة خاصة للدواوين ومقرا لعامل القيروان في عهد الأغلبة

● **منشآت مدنية هامة أخرى:** إن الخطط في القيروان شملت القرشيين ومواليهم والأنصار ومواليهم، وبذلك تكون خطط القيروان متطابقة مع خطط الكوفة لكن خطط قریش والأنصار ومواليهم في القيروان عوضت منازل الصحابة والأمراء والوجوه.

وكان لكل قبيلة مسجدها ورحبتها (ساحتها)، فكيف توزعت بقية القبائل على باقي فضاءات المدينة؟ ونظرا لتعذر رسم مخطط عمراني لكل قبيلة في فضاءات القيروان نفترض المخطط التالي والمنشآت التالية:

● **المسالك والممرات والطرق:** والتي تنقسم بدورها إلى قسمين:

- **المناهج الرئيسية:** وعلى غرار الكوفة كانت القيروان تضم شارعين رئيسيين يلتقيان في الفضاء المركزي "مربع السماط" الذي كان يضم المسجد الجامع ودار الإمارة و الرحاب المحيطة بهما، والرحبة وجدت في كل الأمصار الاسلامية، و سميت في القيروان "رحبة التمر"، و قدم البكري وصفا دقيقا للسماط، و كان سطحها متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات، فهل كانت السكك متشابهة لهذا الشارع الرئيسي الشهير؟ و هل حافظت على اتساعها و ترتيبها الأولي؟

قد تكون الشوارع الأولية متوازية مع السماط و مع الطريق المتعامد معه، و نعتقد أن سكك القبروان كانت متشابهة لسكك الكوفة و إن توصية عمر أخذت بعين الاعتبار من طرف الصحابة والتابعين الذين كانوا مع عقبة، و لا ريب أن المناهج كان كثيرة و كذلك الأزقة و الدروب، و قد ذكرت المصادر بعضها.

- الأزقة و الدروب: فمن الأزقة ذكرت المصادر زقاق ابن دينار، زقاق بني غانم، زقاق الروم، زقاق السقطين، زقاق الفرانين، و زقاق ابن حسنة، وكانت القبروان تضم في فترة تدوين المقدسي لكتابه أحسن التقاسيم (حوالي 375هـ / 986م) خمسة عشر دربا منها الدروب التي تحمل أسماء الأبواب المفضية إليها و هي:- درب الربيع.- درب عبد الله: ينسب لعبد الله بن الزبير - درب تونس.- درب أصرم.- درب أسلم.- درب سوق الأحد: يقع غربي المدينة و هو من أكبر أسواق القبروان، تباع بها الأقمشة والفخار.- درب نافع: يفضي إلى باب نافع و يقع في خطة قريش وينسب إلى نافع أب مؤسس مدينة القبروان.- درب الحذائين: ينسب إلى صانعي الأحذية. و ذكر المالكي: درب ابن دينار، درب الأقرع بن بكار، درب عابد بن سودة، درب المهدي، درب السنجاري، درب البهلول. و ذكر صاحب المعالم: درب أزهر، درب أم أيوب، درب الهدلي، درب السكة. و ذكر الرقيق: درب ابن طفيل في سوق اليهود جنوب سماط القبروان.

● الحمامات: لقد ذكر البكري أن في القبروان ثمانية و أربعين حماما، و هذا الرقم ليس مبالغا فيه فقد كان في صبرة أيام عماراتها ثلاثمائة حمام أكثرها للديار، و باقيها ميرز للناس كافة،... و منها:
- حمام النعمان.- حمام أبي اسحاق.- حمام أبي الربيع.- حمام الجزارين... ويبدو أن عدد الحمامات كان أكثر بكثير وخاصة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة والقرن الثالث أي في عصر ازدهار مدينة القبروان و بعد استقرار الأمن و سيطرة المهالبة ثم الأغالبة على الثورات الخارجية.
● الفنادق: و تسمى أيضا الخانات، و هي مخازن و أماكن للبيع و الشراء و الإقامة المؤقتة، و قد انتشرت الفنادق مع ازدهار التجارة و توسع الدولة الاسلامية فهناك علاقة عضوية بين تطور التجارة ونشر الاسلام. و قد أوردت المصادر ذكر بعض الفنادق في القبروان:

- فندق سكنه عبد الخالق المتعبد القتاب، و هو قرب الجامع.- فندق يسكنه رجال من أهل الساحل: و تدل الإشارة على كثرة الفنادق، قال سحنون لأحد أصحابه: "اذهب إلى فندق كذا و كذا...".- فنادق محمد بن خيرون.- فنادق بباب سلم.

دار الضرب: توجد بسوق الضرب، و يقع جوار باب الطراز و بها تصنع النقود و تعدل الأوزان، ويذهب صاحب الورقات إلى أن دار السكة بالقيروان وجدت في القيروان منذ عهد موسى بن نصير وذلك لوجود نماذج من دنانير الذهب و فلوس النحاس التي ضربها في أواخر القرن الأول للهجرة، ولا شك أن دار الضرب هذه كانت في الدواوين التي أحدثها حسان الذي أمر بنقل الدواوين إلى القيروان خوف الهجوم عليها من البحر و قد احتفظ العرب بدار الضرب، للمسكوكات لما رأوا من المصلحة في استخدامها والانتفاع بها و ليس من شك أن حسانا استخدم مواهب كثير من أعوان البيزنطيين المحليين و موظفيهم في مصالح الإدارة الجديدة و جيشها الفاتح.

● **السجون:** قد أورد ابن عبد الحكم أن يزيد بن أبي مسلم بنى لمحمد بن يزيد القرشي في السجن بيتا ضيقا، وهو السجن الذي سجن فيه الياس بن حبيب سلام بن عبد الرحمن بن حبيب، كما سجن فيه ابن الجارود العديد من القواد. وفي القرن الثالث للهجرة أصبح للقيروان أكثر من سجن واحد، سجن للأمر و يبدو أنه كان في العباسية أو في رقادة، وسجن للوزير و يوجد أيضا في المدينتين الأميرتين وسجن لقاضي القيروان. والأكد أن هناك مؤسسات مدنية أخرى وجدت في القيروان منها:

- **الأهراء:** و مفردها الهري، و هو بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان.
- **الاصطبلات:** الاصطبل موقف الدواب، و يبدو أن هناك اصطبلا للدواب قرب دار الإمارة.
- **دار الطراز:** تصنع فيها الملابس الرسمية لرجال الدولة و توضع فيها الألوية، وشارات الإمارة.
- **الرحاب:** كانت كل خطة من الخطط تحتوي على ساحة أو ميدان أو رحبة يجتمع فيها سكان الخطة من أفراد القبيلة أو البطن تحت إشراف العرفاء عند التحضير للغزوات أو للدفاع عن مدينتهم التي تعرضت إلى هجومات الخوارج والقبائل البربرية، و في القيروان أوجد الذين اختطوها رحبة في المدار المركزي و رحاب أخرى في خطط القبائل و البطون، و تذكر المصادر رحبا كثيرة منها:

- رحبة التمر: و فيها كانت توجد دار الإمارة في قبلة الجامع الأعظم. - رحبة بني دراج: يصلها الداخل من باب تونس. - رحبة القرشيين: في خطة قريش قرب باب تونس. - رحبة الأنصار: في خطة الأنصار من جهة باب سلم. - رحبة ابن أبي داود: قرب باب الريح جنوب غرب القيروان.

● الأرباض: فالقيروان أكبر من دمشق و أعظم مدينة بالمغرب لا بد أنها كانت تضم أرباضا كثيرة، و قد ذكرت المصادر الأرباض التالية:

- حارة يحصب. - حارة السدرة. - الزيادة. - الريحانة. - حارة المرضى: و ذكرت أيضا باسم "الدمنة" أو "دار الجذماء" أو "محلة المرضى"، ويذهب صاحب الورقات إلى أن "الدمنة" اسم الموضوع وربما عرف كامل الحي باسم حارة المرضى،

- روض الروحاء: قال عنه ياقوت (يكتبه روحة): "من قرى القيروان".

- روض البقرية: كان معدا للملاهي والخلاعة. - حارة القرشيين. - حارة اليهود. - حارة أبي محرز. - روض الريدان. - روض السوريين. - روض الأنصار: و يسمى الروض الآن "حومة الشرفاء"

● الأسواق: على غرار بقية المدن الاسلامية كانت أسواق القيروان بالقرب من المسجد الذي كان يتوسطها وهو ما أكده المقدسي: "الجامع بموضع السماط الكبير وسط الأسواق في سرّة البلد"، وقد ذكرت المصادر أسواقا كثيرة منها:

- الأسواق الموجودة قرب السماط:

أ- أسواق النسيج: -سوق البزازين. -سوق الرهادنة: أو الرهادرة أي باعة الأقمشة من الكتان والقطن. -حوانيت الكتانين والرفائين.

ب- أسواق الطعام:

-سوق الطعام: (الحبوب). -زقاق الفرانين. -سوق الدجاج.

ج- بقية الأسواق:

سوق العطارين. - سوق السراجين. - سوق الصيارفة. - سوق الرماحين. - سوق الخرازين. - سوق الحدادين. - حوانيت الوراقين. - القيسارية: بناية مربعة في شكل أروقة تضم غرف ومخازن ودكاكين للتجارة والقيسارية توجد بسوق الضرب، وقريبة من سوق الصيارفة أو هي امتداد لها.

- الأسواق الموجودة قرب الأبواب:

- سوق الابل. - سوق الغنم. - سوق الدباغين: يكون عادة خارج سور المدينة لأن دباغة الجلود تتسبب في التلوث و تضر بالناس، و قد ذكر الدباغ "غدير الجلادين"، و "باب الجلادين" و "دار لدبغ الجلود" - سوق اسماعيل: نسبة إلى اسماعيل بن عبید الأنصاري يعرف "بتاجر الله" وهو أحد العشرة التابعين الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز سنة 100هـ / 718م بنى "المسجد الكبير" بالقيروان الذي يعرف الآن "بمسجد الزيتونة" كان يوجه المولدات والأحمال إلى المشرق وهو سوق للعبید ويقع بالقرب من باب سلم. - سوق أبي المغيرة: نسبت إلى عبد الله بن المغيرة الكوفي. - سوق بني هشام: نسبة إلى هشام بن حاجب.

إضافة إلى وجود أسواق أخرى مثل: أسواق أو دكاكين لم تذكر المصادر أماكنها فقط مثل محلات صانعي النبيذ، وحوانيت أخرى للحجامين وباعة الحناء والخضاب وحوانيت تستعمل ككتاب للأطفال، وليس مستبعدا وجود أسواق أخرى لصناعات و حرف و تجارات وغيرها ...

● القصور: لقد أنشأ عقبة مع المسجد الجامع دار الإمارة، و هي أول قصر أنشأه العرب في افريقية محافظين بذلك على تقليدهم الذي بدأ عند تأسيس الكوفة و البصرة و الفسطاط، و المؤكد أن هذا القصر لم يكن القصر الوحيد في القيروان في عهد حسان الذي دون الدواوين، ومنها: ديوان الجند وديوان الخراج و ديوان الرسائل والتي أضاف إليها موسى بن نصير دار الضرب لسك النقود، وقد ضمت القيروان القصور والدور الضخمة مثل دار عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي من فضلاء التابعين بناحية باب تونس بقرب درب أزهر، و دار حنش بن عبد الله الصنعاني، من فضلاء التابعين بناحية باب الريح، و دار علي بن رباح اللخمي، من فضلاء التابعين عند باب نافع، ودار جندب بن بشر أبو غطيف الهذلي، من فضلاء التابعين، و دار زياد بن أنعم، من فضلاء التابعين في ناحية باب نافع،

ودار المغيرة لصاحبها المغيرة بن أبي بردة القرشي و ابنه عبد الله قاضي عمر بن عبد العزيز بالقيروان ولهم ربع لم يزل بأيديهم إلى أن خربت القيروان، وغير هؤلاء من فضلاء القيروان كثير.

كما ضمت القيروان دور وقصور السادة وأصحاب النفوذ والقادة مثل أبي الخطار بن ضرار الكلبي الذي كان قائدا جليلا و رئيسا شريفا في قومه وولي ولايات كثيرة في إمارة بشر بن صفوان، ومن القصور التي ذكرتها المصادر قصر منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري بطريق سوسة، وكذلك قصر بشير في نفس الموضع، و كذلك دار المنصور الحميري بالموضع الذي به دور بني نافذ بالقيروان، وكذلك قصر حفص صاحب الخراج مولى بني منصور، و ذكر الرقيق أيضا قصرا لروح بن حاتم فيه عليّة. ولما تكونت الدولة الأغلبية ابنتى الأمراء و رجال الدولة و أرباب الرتب العليا القصور والسرايات المناسبة لمقامهم و ثروتهم، ولعل دار القاضي أو دار القضاء تعود أيضا إلى الفترة الأغلبية وهي ملاصقة لجامع عقبة من الناحية القبليّة.

ومن القصور التي أنشأها الأمراء الأغلبة قصر حمص و قصر أبي الفتح، و ان زيادة الله قد بنى على غربي الماجل (فسقية الأغلبة باب تونس) قصرا سماه صاحب البساط قصر الماء، وسرايا للقضاة مثل دار ابن غانم و دار أبي محرز، و دار بني فروخ و دار يزيد بن الطفيل، و دار ابن طالب والتجار الأثرياء مثل محمد بن خيرون الأندلسي صاحب المسجد الشريف و الفنادق المجاورة للسجن، وكذلك الوزراء مثل عبد الله بن علي بن حميد الوزير أو نصر بن حمزة الذين لا شك أنهم كانوا يمتلكون أكثر من قصر في القيروان و العباسية و في غيرها من الأرياض، و لا شك أن القيروان ضمت قصورا وسرايا لتجار وولاة وأعيان.

● **الأبواب:** ذكر البكري عند تعداده لأبواب القيروان عبارة "الأربعة"، وهي عبارة تعيد لأذهاننا "مربع السماط"، فتطرح علينا من جديد مسألة الفضاء المركزي والساحة العامة وسط المدينة والشارعين الرئيسيين المتعامدين: كاردو- ماكسيموس، و ديكيومانوس- ماكسيموس، ونستخرج من هذا أن الأبواب الأصلية كانت أربعة، وهي عند التأسيس منافذ للخطط، وهذه المنافذ هي:

- شرقا: باب نافع، نسبة لأب مؤسس المدينة عقبة بن نافع الفهري و يقع شرق شريح سحنون الآن. - غربا: باب سلم، أو باب أسلم، و أسلم إحدى القبائل اليمنية التي شاركت في فتح افريقية واختطت في القيروان، و هو يفتح على مقبرة قريش خارج الباب الجديد الحالي. - شمالا: باب تونس، يفتح على ماجل أبي ابراهيم أحمد. - جنوبا: باب أبي الربيع، وقد ربط أحد المصادر بين هذه التسمية وأسطورة الحيوانات التي أطاعت عقبة عند التأسيس وبين اسم هذا الباب القريب من الواد المالح، وهو بين القبلة و المشرق.

ويذكر البكري من الأبواب القديمة إضافة إلى الأبواب الأربعة باب بين القبلة والمغرب، ولم يذكر اسمه، و يذكر في الشرق إضافة إلى باب نافع باب عبد الله و يبدو أن هذا المنفذ وجد منذ بناء سور القيروان من طرف ابن الأشعث وسمي باسم عبد الله بن الزبير.

وقد يكون باب أصرم وضع في فترة بناء السور وهو طريق الجادة الكبرى التي تربط مع المشرق مرورا بطرابلس وبرقة ومصر وتربط أيضا مع قابس وصفاقس. وبنيت مع السور أو في فترات لاحقة الأبواب الآتية: - باب النخيل. - باب الربيع. - باب الطراز. - باب سحنون. - باب القلاين...

● المقابر: ليس غريبا أن يفكر مخطو القيروان في مقابر لموتاهم، ألم يكن عقبة رجلا صالحا؟ فقد دعاه أولاده فقال لهم: "إني قد بعث نفسي من الله لأن أمني الموت في سبيل الله"، ثم أن المقابر قد تكون سبقت اختطاط المدينة. فقد ذكر أبو العرب أن أبا زمعة البلوي دفن بمقبرة باب تونس بالبلوية، ثم أن عبد الله بن عمر بن الخطاب كانت معه أم ولد له، فولدت له صببية ماتت فدفنها في مقبرة قريش بباب سلم، ويضيف أبو العرب فاتخذها قريش مقبرة يدفنون فيها، لمكان تلك الصبية، و من أشهر المقابر:

- مقبرة باب سلم: في الغرب، سماها أبو العرب "المقبرة العظمى" وتسمى أيضا "مقبرة قريش" وتسمى الآن "الجنح الأخضر". - مقبرة باب نافع. - مقبرة باب تونس: ليست بعيدة عن مصلى الجنائز، قرب آبار حديج عند باب تونس (القديم)، - المقبرة البلوية: في الناحية الشمالية الغربية نسبة إلى أبي زمعة البلوي، - مقبرة باب أبي الربيع ...

● **المنشآت المائية:** إنه ليس معقولا أن يصر عقبه هذا القائد العظيم أول مدينة إسلامية في إفريقية دون أن يأخذ بعين الاعتبار مشكلة تزويدها بالماء، ألم يكن موضع القيروان واديا كثير الشجر كثير القطف، ثم ألم يتعرض عقبه إلى مشاكل العطش في الصحراء قبل تأسيسه القيروان إذ أقام بمكان اسمه ماء فرس ولم يكن به ماء فأصابهم عطش شديد أشفى منه عقبه وأصحابه على الموت، ثم ألم يتوقف كل قادة الفتح في موضع القيروان، عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 27هـ/ 647م و معاوية بن حديج سنة 45هـ/ 665م الذي حفر آبارا عند باب تونس في ناحية الجبل منه تسمى للآن "آبار حديج" غلب عليها اسم أبيه حديج، وذلك قبل تأسيس القيروان.

ومن المؤكد أن عقبه اختار موضع القيروان وقد قربها من الوادي لتوفر الماء في واد يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة. ولا يمكن تصور بناء مدينة دون وجود ماء، فبئر أم عياض موجودة قبل بناء جامع عقبه، و قد يكون حفرها الجيش الفاتح، الذي حفر آبارا كثيرة لاستعمالاته المختلفة وأساسا لبناء القيروان (الدور و المساجد وغيرها...)، ومن آبار الخطط يمكن ذكر "بئر الجنان"، وقد وجد الفاتحون منشآت مائية قديمة منها "قصر الماء"، وكانت المعارك تقع بالقرب من الأنهار أو المنشآت المائية، لقد واصل موسى بن نصير بعد حسان تنظيم البلاد وخاصة بعد انتهاء فتح المغرب، فقد ركب يوما حتى خرج من القيروان، فوقف قريبا من افريقية على رأس أمسال، فأخذ بيده ترابا فشمه من ثم أمر بحفر بئر و ابنتى دارا و منية واتخذ فيها خيلا فسميت بئر منية الخيل، فليس يعلم بالمغرب بئر أعذب منها، و هذا يدل على اهتمامه بالزراعة و باستقرار الناس.

أما الانجازات المائية الكبرى فكانت من عمل الأغالبة، يقول ابن عذارى: "و في سنة 245هـ/ 859م، أخرج أبو ابراهيم بن الأغلب صاحب افريقية مالا كثيرا لحفر المواجل، و بنيان المساجد والقناطر..."، "...فأمر ببناء ماجل باب تونس، و بنى ماجل باب أبي الربيع"، و م يقتصر بناء المواجل على الولاة والأمراء فقط بل قام بهذا العمل الخيري أيضا بعض الخاصة مثل محمد بن خيرون الأندلسي الذي بنى الجامع الشريف بالقيروان و بنى فيه جبابا للماء، ومن المواجل نذكر:

- ماجل مهريّة: - ماجل باب أبي الربيع - ماجل سيدي يعقوب الدهماني - فسقية الأغالبة... ومن المعروف أن الأغالبة أسسوا منشآت كثيرة لخدمة الصالح العام وذلك بإصلاح شبكة الطرقات الرومانية وفتح طرقات جديدة وإصلاح القناطر القديمة وإنشاء الجديدة ووضعوا السدود على المجاري والجداول لتحذ من قوة اندفاع الماء الذي سخر لري المزروعات، و قد أظهرت الدراسات عدة منشآت مائية تعود إلى فترتهم في كور القيروان و قمودة والساحل وغيرها....

3- العمارة الحربية:

من المؤكد أن القيروان (المعسكر الذي تحول إلى مدينة) كانت تضم أماكن السلاح وهي عادة تابعة لقصر الإمارة، وقد سمّتها المصادر "الخزائن"، أو "بيت السلاح"، و أورد البكري أن للقيروان من القديم سبعة محارس، أربعة خارجها و ثلاثة داخلها، فهل بنيت هذه المحارس قبل تأسيس محمد بن الأشعث لسور القيروان سنة 144هـ / 761م أم بعد ذلك؟ و المحارس نوع من الثكنات و حصون الحراسة و هي ضرورية لمدينة هامة في منبسط من الأرض في فترة عرفت بالاضطراب الأمني والثورات.

● الأسوار: كان بناء القيروان محارين مالكين لأسلحتهم، فكان سورههم سيوفهم لكن عندما تعرضت القيروان إلى أكبر محنة إذ تغلبت عليها بعض القبائل الصفرية بعد قتل حبيب و عاصم، فدخلوا القيروان و ربطوا دوابهم في المسجد الجامع، و قتلوا كل من كان من قريش وعذبوا أهلها، وأساءت ورفجومة لأهل القيروان سوء العذاب سنة 140هـ / 757م لذلك بادر محمد بن الأشعث الخزاعي، وهو أول قائد للمسودة، بتحسينها ليقبها تجدد مثل هذه الكارثة، فأمر ببناء سور القيروان الأبراج أو المحارس: وهي نوع من الثكنات أو حصون الحراسة، وبنيت في عهد محمد بن الأشعث في نفس الفترة التي تم فيها بناء سور القيروان، و قد تكون بنيت جميعها أو بعضها في عهد يزيد بن حاتم أو في عهد أبي ابراهيم أحمد بن أبي العباس محمد الذي كان مولعا بالعمارة فبنى بافريقية نحو من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد أو في عهد محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب الذي بنى أيضا حصونا ومحارس ومنها: "محرس الأنصار" الذي بني على "مسجد الأنصار"، ومن المؤكد وجود علاقة بين المحارس السبعة والمساجد السبعة والخطط السبع.

● **الخدق:** من بين التحصينات التي اعتمدت في القيروان، حيث أمر الخليفة العباسي المنصور واليه الأغلب بن سالم التميمي بتحصين مدينة القيروان وخذقها و ترتيب حرسها.

● **الثكنات:** أو ما يمكن أن يسمى "مقرات القيادة العسكرية" التي أصبحت مع مجيء الأغلبية منتقاة بصفة دقيقة إذ لا تشمل إلا قادة من العائلة الحاكمة أو قادة عرب عرفوا بالولاء التام أو من الموالي أو العبيد (السود أو الصقالبة) الذين لا تنفذ إليهم الدسائس، و قد بدأت هذه المقرات مع أول قصر ابتناه ابراهيم بن الأغلب في العباسية إذ أسكن معه من يثق به من الجند و الذي تسميه المصادر "القصر الأبيض" أو قصور قد بني عليها عدة حيطان، و توجد داخل المدينة رحبة كبيرة واسعة تعرف "بالميدان"، و بها يقع عرض الجيش و الفرسان في أيام العرض و العطاء، ثم انتقلت القيادة العليا للجيش مع ابراهيم بن أحمد إلى رقادة سنة 264هـ/ 878م، يقول الاصطخري (ت في النصف الأول من القرن 4هـ/ 10م) و خارج القيروان أبنية كانت معسكر آل الأغلب و مقامهم بها كان، و تسمى "الرقادة"، و قد وجدت في رقادة الثكنات الضخمة القادرة على استيعاب آلاف الجنود والعبيد السود الذين جمع منهم ابراهيم بن أحمد خمسة آلاف أسود، كما وجدت في رقادة "قبة العرض" التي تشرف على ميدان استقبال سنة 293هـ/ 906م عساكر عظيمة، كما وجد بقرب رقادة "الملعب" الذي يستعمل للعرض فقد أنزل فيه زيادة الله سنة 294هـ/ 907م رسول صاحب القسطنطينية و جمع الناس للمباهاة بهم، فكان جمعا عظيما.

و يبدو أن القيروان كانت محاطة بجملة من المحارس تعزيز الحدود في فترات الغزو، فقد ذكر النعمان أن زيادة الله كتب من كل محرس من محارسه عدة معلومة من شبابهم، فما هي هذه المحارس؟ ليس بإمكاننا الإجابة عن هذا السؤال الآن لكن دراستنا للمصادر جعلتنا نكشف مواقع تبدو وكأنها قامت بدور خطوط دفاع عن العاصمة الاسلامية الأولى في المغرب العربي، فقد أوردت المصادر أثناء الهجومات البربرية أو أثناء الزحف الشيعي أو في غيرها من الهجومات مواقع قريبة من القيروان دارت فيها معارك هامة و مثلت ما يشبه خط دفاع أخير عن المدينة تسبقه خطوط أخرى فقد مثلت مواقع الأصنام والقنطاط و قصر الماء، و خط الدفاع الأقرب إلى المدينة و مثلت مواقع

القرن و طنبياس خط دفاع ثان، وقد تكون جلولا و ممس بمثابة خط الدفاع المتقدم، و قد تكون هناك مواقع أخرى تكمل خطوط الدفاع المذكورة أو تقوم بدور الرصد و التنبيه من الهجومات المختلفة، و قام الوادي و السبخة بما يشبه الحماية الطبيعية من الناحية الشرقية و الشمالية الشرقية. و مما سبق نستنتج النقاط التالية:

- تعتبر القيروان أول مصر أحدثه العرب المسلمون بأفريقية، و نشأت في البداية معسكرا و قاعدة للانتشار.

- توسعت المدينة تدريجيا و تعددت وظائفها مثلما تنوع ترميمها و كثر عمرانها، و هي عاصمة لولاية أفريقية ثم للإمارة الأغلبية.

- حضيت القيروان بعناية خاصة باعتبارها مركز السلطة، فأكملت عناصرها العمرانية من مسجد و سور و أسواق و خزانات مياه حتى العهد الأغلبي.

- نال جامع عقبة أهمية كبيرة باعتباره رمز المدينة و مركز إشعاع الدين الجديد و تعددت به الأشغال نتيجة توسع المدينة و ارتفاع عدد سكانها، فأضحى الجامع نموذجا لنمط عمراي قيرواني مميز: شكل مستطيل، أروقة من ثلاث جهات، صومعة ذات قواعد أربعة و طوابق ثلاث تبدو كبرج مراقبة، قبتان قبة المحراب و قبة البهو، سقف خشبي متعدد الزخارف، محراب مكون من طاقة مجوفة تعلوها نصف قبة.

- المواد المستعملة في بناء الجامع من مواقع قديمة مع حجارة مصقولة (دبش) و آجر مجفف (لبن)، عمارة قوية و صلبة ذات مسحة عسكرية.

- زخارف هندسية و نباتية (ورق العنب، زهرات، سعف النخيل) في أشكال متناسقة و متناظرة، إضافة إلى الكتابة من خلال التفنن في رسم كلمة الله أو آيات قرآنية.

- يعد المسجد الجامع بالقيروان نموذجا معماريا شمل تأثيره أفريقية و بلاد المغرب و كذلك صقلية حتى العهد النورماني و أنحاء من المشرق مثل جامع الأزهر، كما ظل الجامع مدرسة كبرى و منارة علمية.

- ضم النمط المعماري القيرواني أيضا مجموعة من التحصينات و العناصر الدفاعية.

- اتجه الأغلبة إلى ترميم الحصون و القلاع القديمة و بنوا أخرى جديدة انتظمت خاصة على السواحل للإنذار في حالة الخطر و أخذت شكل رباطات مثل رباط سوسة.

المحاضرة الخامسة - نموذج من مدن المغرب الأوسط:



❖ نموذج؛ حاضرة تيهرت:

أولا- أصل التسمية و معانيها

لقد عرفت مدينة تيهرت تسميات عديدة تناقلتها المصادر التاريخية و المراجع من أهمها اسم تيهرت و هو السائد في معظم المصادر، و نجد أيضا اسم المعصومة و القصة، و أطلق عليها أيضا اسم أم العسكريو العسكر المبارك، و قلعة عبد الرحمن أما في فترة عبد الوهاب بن عبد الرحمن فسميت بالعسكرية، و يقول الشماخي: "و كانت تيهرت مدينة عظيمة بناها عبد الرحمن بن رستم في موضع مربع، لذا سميت تاقدمت و تفسيرها الدف" نشير إلى أن اسم تيهرت الذي عرفت به المدينة اختلف الباحثون في أصله و معناه الحقيقي، و تضارب العلماء في مصدره و إلى أية لغة يمكن ارجاعه، فذهب الباحثان إليس راكلس و ماك كرتي أن تيهرت كلمة بربرية و تعني بالنسبة له "محطة" و قد يكون لهذا التعريف صلة بوجود محطة قطار تعود للفترة الاستعمارية أو لكونها مثلت محطة وملتقى القوافل التجارية القادمة من مختلف الاتجاهات من تونس شرقا و من فاس و تلمسان و غيرها غربا و الصحراء جنوبا، ولا شك أن تيهرت لعبت هذين الدورين منذ العهد الروماني فالرستمي حتى يومنا هذا، و هما يشيران بوضوح إلى دور تيهرت التجاري بين الشمال و الجنوب و الشرق والغرب، بينما الأب دوفوكو، فيرى أن كلمة تيهرت جذرها بربري وهو "إهر" EHER و يعني "سد الفتحة"، و "تاهورت" TAHORT و هي القطعة التي تسد بها هذه الفتحة، في حين يلاحظ بلكران أن كثيرا من أسماء مدن الجزائر هي مؤنث لأسماء حيوانات فاسم الأسد يوجد في البربرية في حالتين جذرها (آر) ar و بجمع (إرن) Iren - (إرد) Aired و بجمع (إردن) Airaden تأنيثه (ترت) أو تيهرت أو تاهارات Tahert و التي تعني اللبؤة، قد يكون لهذا التفسير علاقة مع الأسطورة التي

تذكر أن عند تحضير الأرض للبناء "نادى مناد بسباعها ووحوشها وهوامها أن أخرجوا فإننا أردنا عمارة هذه الأرض فأجلوها ثلاثة أيام، و بلغنا أنهم رأوا وحوشها تحمل أولادها خارجة بها منها و قيل رأوا لبؤة حاملة أولادها خارجة منها فقد يكون لهذه الأسطورة أثرها في تفسير بلكران خاصة إذا علمنا أنه التفسير المتداول بين الناس حاليا في المنطقة و غيرها لذا رجحنا هذا التفسير عن غيره.

و تسمية أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها يسوقها البكري مع تفسير لمعناها فيقول: " و نزل عبد الرحمن موضعا مربعا لا شعراء فيه، فقال البربر نزل تاقدامت تفسيره الدف، شبهوه بالدف لتربيعة"، و تؤكد هذا التفسير المعاجم البربرية و القبائلية مثل المعجم الفرنسي- البربري و المعجم الفرنسي- القبائلي.

و هناك تفسير ثان لكلمة تاقدامت يتزعمه الحسن الوزان حيث يقول بأن اسم تاقدامت يعني "قديم" أطلق عليها لوجود آثار قديمة بها، و يؤيده في هذا التفسير جورج مارسي و دوسوس لامار في قولهما بأن "تاقدامت" هي تأنيث بالبربرية للكلمة العربية "قديم" و التي تعني عتيق باعتبار أن الموقع يحتوي على آثار رومانية قديمة.

لكن مهما يكن من أمر فإن المدينة عرفت شهرتها بعمارتها و ازدهارها لا بما تحمله من معان لأسمائها، فابن خلدون مثلا ذكرها بتاهرت دون أن يعلق على هذه الصيغة و كذلك الأمير عبد القادر ما عدا مرتين باسم تيارت، أما ابراهيم بحاز و هو من المحدثين فيرى أن الصيغة الصحيحة هي تيهرت و أنها حرفت بمرور الزمن.

2- أهمية موقع تيهرت وأسباب اختياره:

لقد طرح العديد من المؤرخين عدة أسئلة لم تجد لديهم الرد اللازم عليها والمتعلقة أساسا بأسباب اختيار عبد الرحمن بن رستم لتيهرت دون غيرها من المدن، و يمكننا أن نتساءل لماذا أهمل عبد الرحمن بن رستم المدينة العتيقة الواقعة قريبا من تيارت الحالية و التي كانت محصنة بقلعة و بحدارين ضخمين، وكانت تتمتع بموقع حصين ممتاز ليستقر على مسافة ثمانية كيلومترات غربي المدينة القديمة؟ فهل اختار الأمير الرستمي الأول موقعا بكرا جديدا لم يسبق إليه ليؤسس فيه عاصمة، أملا

في تخليد ذكره كما صنع عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان، وإدريس الأول المختط لمدينة فاس، إضافة إلى ذلك أن المدينة القديمة عتيقة ليست على الهندسة الإسلامية البارعة و أن إصلاح العتيق يكون أكثر تعبا و إرهاقا من إنشاء الحديث، أم كما ظن جورج مارسيه أن هذا الاختيار سببه انشغال البال بهدف عملي هو أشبه باهتمام المهندسين المعماريين البناء للمدن الحديثة، و هو بشكل خاص أقرب إلى رغبة المسلمين المعنيين بتشييد المدن، و هي رغبة التقرب إلى الماء و تزويد سكان الحواضر، حيث كانت تيهرت غنية بالماء، و هذا ما أكدته جل المصادر التاريخية، فمثلا البكري يذكر ذلك في الفقرة التالية: "وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة و هو في قبليها، و نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تاتش ومنه شرب أهلها وأرضها وهو في شرقيها"، ويقول اليعقوبي: "تاهرت مدينة كبيرة أهلة بين جبال وأودية... و شرب أهلها من أنهار و عيون".

أما صاحب الاستبصار فيقول: "وهي على نهر يأتيها من الغرب يسمى منة و لها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانس"، و يقول الإدريسي: "و بمدينة تاهرت الحديثة مياه متدفقة، و عيون جارية تدخل أكثر ديارهم و يتصرفون فيها، و لهم على هذه المياه بساتين و أشجار".

لقد ساهمت جملة من العوامل الجيولوجية و المناخية و الاجتماعية و الاقتصادية و حتى السياسية والمذهبية في اختيار موضع تيهرت دون غيره بحملها فيما يلي:

* يأتي في مقدمة تلك العوامل أن المنطقة عرفت نموا و استقرارا للسكان منذ العصور القديمة، ضف إلى ذلك أنها منطقة داخلية منطوية على نفسها، فرغم أن تيهرت تقع على رأس الطريق الذي يصل منطقة التلول بأسافل وادي الشلف المؤدي إلى البحر، و رغم أنها مغلقة في أعلى منطقة جبلية "تلول منداس" فإنها تقع على السفح الجنوبي للجبل "جبل جزول" بمعنى أنها توجه أنظارها نحو الداخل و تدير ظهرها إلى البحر و هذا يمثل موقعا استراتيجيا ممتازا بالنسبة لجماعة يحيط بها الأعداء من كل جانب و ترجو أن تعيش في أمان، كما أن موقعها ما بين جبال الأطلس جعلها تهيمن على بلاد المغرب من جهاتها الأربع، فهي بعيدة عن القيروان تفصل بينهما منطقة الزاب و جبال الأوراس، و هي بمأمن من ضربات الأسطول البيزنطي لبعدها عن الساحل.

* و من خصائص هذا المكان أنه يمتاز بلطف و نقاوة الهواء، و خصوبة الأراضي، كما انه قابل للعمارة، مؤمن عن العدو وهي شروط المدينة التي ستكون حصنا للإسلام، كما أنه يتوسط التل والصحراء، ففيه من التل خصبة و لطافة جوده، و فيه من الصحراء جوها الصحي ومناخها النقي، والصحراء هي طريقها إلى السودان تلك الأقطار الواسعة التي ستنتشر فيها الإسلام و تنقل إليها الحضارة و تتاجر مع أهلها، إن هذا المكان يتوسط الشمال والجنوب، مما يورث لتيهت وللدولة كلها خصائص الشمال الجميلة و ميزات الصحراء العظيمة.

*جاء عبد الرحمن بن رستم إلى قبيلة لماية، كان بدافع مذهبي إذ تعد لمائة من أهم القبائل الإباضية في المغرب الأوسط آنذاك، كما كان يرغب عبد الرحمن بن رستم من خلال اختياره لهذا الموقع في السيطرة و التحكم في القبائل الصحراوية البدوية، خاصة و أن تيهت تقع في قلب منطقة تسكنها قبائل إباضية متعددة .

*وقوع تيهت على طريق القوافل التجارية المارة من و إلى المشرق والسودان، لعب دورا في اختيارها، فهي تتوسط قبائل الناحية مما جعل منها سوقا تقصدها القبائل و تصلها القوافل التجارية التي تربط الواحات الصحراوية بموانئ الساحل.

*تمتاز المنطقة بتربتها الحمراء بأسفل الجبل و بالحجارة الكلسية البيضاء و الرملية، مما يساعد على تمركز المياه الباطنية، كما يوفر أراض خصبة و غنية تساعد على الزراعة و الرعي لتوفر المياه، ويتسم مناخ تيهت ببرودة و ضباب كثيف في الشتاء و جو معتدل في الصيف، حيث يصف يعقوبي مناخها بقوله: "أما تمتاز بالبرد الشديد وفيها رياح قوية، والشمس توقد و تحرق"، ومن خلال الأبيات الشعرية لبكر بن حماد الشاعر التيهرتي (ت.296هـ) نستنتج برودة الطقس و قلة ظهور الشمس حيث قال:

ما أحسن البرد و ريعانه و أطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم إذا ما بدت كأنها تنتشر من تحت
فنحن في بحر بلا لحي تجري بنا الريح على السمات

نفرح بالشمس إذا بدت كفرحة الذمي بالسبت

و مما يؤكد أن المناخ كان ممطرا و مثلجا أعطى للمنطقة ميزة خاصة، حتى نرى رجلا من تيهرت، لما كان بالحجاز قال مخاطبا للشمس: "أحرقني ما شئت فو الله إنك بتاهرت لذليلة"، و يقول القزويني: "...كثرة الأمطار و الأنداء و الضباب و شدة البرد قلما ترى الشمس بها".

أما عن عدم تمسك الإمام الرستمي بالمدينة القديمة التي كانت عامرة قبل بناء المدينة الحديثة، فيرجع بالدرجة الأولى إلى مقاومة سكانها له وهو ما يتأكد من قول البكري الذي أشار بأنه توجه إلى تيهرت القديمة أو العليا، فكان كلما بنى شيئا في الليل وجده قد انهار في الصباح، فعزف عن ذلك الموضوع و انتقل إلى تيهرت الحديثة، ومن خلال هذا النص يتبين أن سكان المدينة عارضوا البناء وأن عبد الرحمن بن رستم فضل عدم المواجهة للحفاظ على الأنصار في بداية تأسيس دولته، واتفق معهم على أخذ خراج السوق، حيث يذكر محمد دبوز: "أن أهل المدينة القديمة قد علموا أن مدينتهم ستصبح عاصمة الدولة، وبذلك تفتح أبوابها لكل الطوائف، فرفضوا هذا الوضع و أن عبد الرحمن لم يرغب هؤلاء على بيعهم أرضهم.

وهكذا كانت هذه العوامل دافعا وحافزا لعبد الرحمن بن رستم و أصحابه في اختيار تيهرت عاصمة لدولتهم المنتظرة، والتي أصبحت حرزا وحصنا لجماعة المسلمين وسميت بأمر العسكر والعسكر المبارك.

3- البنية العمرانية وضوابط التخطيط والتحسين:

إن التحليل المورفولوجي للمخطط العمراني لمدينة ما، يتطلب الاختصاص الدقيق في ميدان العمران و الآثار، و يعتمد أيضا على نتائج التنقيبات و الحفريات التي يقوم بها الأثريون والمهندسون، ولندرة المعطيات في هذا المجال، سنحاول دراسة المخطط العمراني لتيهرت و بنيتها الداخلية بالاعتماد على نتائج بعض الدراسات والحفريات و إن كانت نتائجها ما زالت قليلة و محدودة، وكذا اللجوء إلى النصوص التاريخية والتي هي الأخرى لا تعطينا النتائج الدقيقة خاصة فيما يتعلق بتحديد أماكن

الأحياء و الدروب والأزقة و القصور بسبب اندثار وزوال معالمها العمرانية، ويمكن تقسيم الآثار العمرانية من منشآت و مرافق عمومية إلى عمارة دينية و مدنية و حربية.

1- العمارة الدينية:

إن جورج مارسيه في بحثه الوجيه في الفن الإسلامي ربط تطور العمارة الإسلامية بالتطور السياسي و الحضاري، حيث اعتبرها مظهرا من مظاهر هذا التطور الذي شهده العالم الإسلامي. و تتميز المدينة الإسلامية عموما، سواء في بلاد المشرق أو في بلاد المغرب بسمات مشتركة بغض النظر، عن المميزات التي تفرضها البيئة الطبيعية، والتقاليد المحلية، لأن تشييد المدينة الإسلامية مرتبط بضوابط وشروط معمارية أساسية، و ضرورة توفر بعض المعالم العمرانية على رأسها المسجد الذي يعتبر النواة الأولى لل عمران، ويقع في وسط المدينة، و هو مكان لأداء فريضة الصلاة، و مقر لاجتماع سكان المدينة، لتداول أمورهم الاجتماعية والاقتصادية وتعليم أبنائهم مختلف العلوم العقلية والنقلية.

لقد كان ظهور المسجد قبل ظهور المدارس و الزوايا في المغرب الإسلامي عموما حيث كان هو المؤسسة التي تستقبل الطلبة و المصلين في حلقات درس داخل المسجد، فكان بذلك عبارة عن جامعة أو معهد بالإضافة إلى كونه مقرا للعبادة تلقى فيه دروس الوعظ و الإرشاد وتعقد فيه حلقات البحث، وتنظم فيه المناظرات العلمية، و الحوارات الفقهية، و المطارحات الأدبية واللغوية ودروس الوعظ و الإرشاد والإفتاء، و يجتمع فيه أصحاب المصالح العامة و الخاصة، كما كانت تقرأ فيه البلاغات الرسمية في للدولة، و يجتمع فيه الأولياء لتدبير زواج بناتهم و أبنائهم، و تمضى فيه العقود التجارية و تؤخذ إليه الجناز قبل الدفن للصلاة عليها.

فالمساجد حسب تصنيف أرنست كونل تتميز بالأصالة و الوضوح و التطابق التام مع روح الإسلام الشاملة و الواضحة، فهو ساحة نظيفة مستوية ظاهرة يحيط بها سور وظيفته تعيين حدود المكان المخصص للصلاة.

لقد خضعت المدينة تيهرت إلى مخطط عمراني طبقت فيه أحكام الشريعة الإسلامية و قانون العمارة الإسلامية على غرار المدن الإسلامية، لهذا فأول ما شيد فيها هو المسجد الجامع الذي تم اختيار مكانه عن طريق القرعة، و يذكر أبو زكرياء يحيى في هذا الصدد: "قصدوا إلى اختيار محل ليؤسسوا فيه المسجد الجامع قبل كل شيء، فانتخبوا أربعة أماكن و رموا القرعة عليها، فجاءت على المكان الذي أصلحوه للصلاة أيام إقامتهم في تنقية الأشجار.

و يذكر ابن حوقل: "تیهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة والأخرى محدثة، والقديمة ذات سور وبها جامع، و في المحدثه أيضا جامع"، و يقول المقدسي: "تاهرت اسم لقصبة... لها جامعان عن ثلثي البلد قد بني بالحجارة و الجير"، و يقول ابن عذارى: "فنزلوا بموضع تيهرت... فبنوا مسجدا من أربع بلاطات".

أما مواد البناء التي استعملت في أول الأمر، فكانت عبارة عن خشب الشعراء الذي جلب من غابات المنطقة و طين كان يمد به الخادم إلى ابن رستم لإصلاح الشقوق عند وصول الوفد إلى المدينة، وهذا ما ذكره ابن الصغير أن وفد البصرة قد وجد بباب عبد الرحمن "غلاما يعجن طينا ورجلا على سطح يصلح شقاقا فيه، و الغلام يناوله ما يصلح به".

وهذا يدل على بساطة المواد المستعملة و فقر الدولة عند إنشائها، وسياسة عبد الرحمن القائمة على التواضع و التقشف، أما عن التخطيط للجامع فيذكر البكري أنه ظل على حالة إلى أيامه أو إلى أيام محمد بن يوسف الذي ينقل هو عنه مكونا من أربعة بلاطات، وما نلاحظه أن الرستميين خرجوا عن قاعدة بناء دار الإمارة بعد المسجد الجامع، فقد بنوا هذا المسجد حقا، لكن ابن الصغير لا يشير إلى وجود دار الإمارة في تيهرت حيث ذكر أن عبد الرحمن بن رستم كان يصرف أمور الرستميين في الجامع و بجانب مسجدها الجامع الموجود في المدينة، وجدت أيضا مساجد أخرى في الأحياء، وينسب بعضها إلى الأقليات التي استقرت بتيهرت، ومنها على سبيل المثال مسجد القرويين ومسجد الكوفيين وهذا ما يفهم من قول بن الصغير: "...فكان مسجد للقرويين وللكوفيين ومسجد للبصريين".

ويقول جودت عبد الكريم أنه بما أن كل جماعة كانت تسكن منفصلة عن الأخرى، كان لها مسجدها الخاص بها، إن المساجد كانت متعددة وكثيرة، وهذا نفهمه من قول أبي زكرياء: "فشرعوا في تأسيسها و اختطوها بيوتا و قصورا و أسواقا و مساجد".

كما أن الفرق الدينية التي وجدت في تيهرت كان لكل منها مسجدها و علماءها وحلقات دروسها، فقد ذكر ابن الصغير: "...من أتى إلى حلقات الإباضية ناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلقات غيرهم كان سبيله ذلك"، و قد وجد في تيهرت الأحناف، خاصة في عهد عبد الرحمن بن رستم، وغالبيتهم من اهل الكوفة حتى أنهم بنوا مسجدا خاصا بهم سموه مسجد الكوفيين.

إن العمارة الدينية تشمل إلى جانب المساجد والجوامع المدارس، والتي تبني عادة خارج المسجد، وقد تأخر ظهورها في بلاد المغرب إلى النصف الأول من القرن السابع الهجري، لهذا لم نجد لها أثرا في تيهرت في جل المصادر، خاصة و أن مدلول المدرسة يختلف عن مدلول الأماكن التعليمية والدينية السابقة لها كالمساجد والكتاتيب والرباط، وهو مفهوم ظهر مع ظهور المدرسة الشرقية في منتصف القرن الخامس الهجري في خرسان. فهي عبارة عن بناية مستقلة عن أي بناية عمومية كالمسجد والقصر وغيرها. و يمكن اعتبار العمائر الجنائزية من ضمن العمارة الدينية مثل المقابر و المدافن خاصة و أنه في تيهرت وجد مصلى خاص بالجنائز و هذا نفهمه من قول ابن الصغير عند حديثه عن أبي اليقظان، فيقول "وقد جلس خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي، و رأيته يوما ثانيا في مصلى الجنائز، وقد رميت له وسادة من آدم، فجلس ينتظر فراغ دفن رجل مات من وجوه الناس".

وقد أكد المستشرق كدنا وجود مقبرة في الجهة الغربية من المدينة من خلال وجود مجموعة من الأحجار مندثرة هنا و هناك و منتظمة الإتجاه، إلا أننا نعلم أن المقبرة في المدينة الإسلامية موقعها يكون خارج المدينة، لهذا إذا أخذنا برأي "كدنا" فإننا نقول أنه أخذ توسع المدينة على حسابها، فارتبطت بالمساكن في الفترات اللاحقة من تطور المدينة، و هناك أيضا افتراض آخر لموقع آخر يرجح

أنه كان مقبرة، و هو في الجهة الشمالية عند نهاية المنحدر في منبع إحدى العيون التي يمكن أن تكون عين "ناتش" التي ذكرتها المصادر التاريخية، و يتضمن هذا الموقع أحجارا مرتبة غير مبنية وضعت على هيئة القبور الصحراوية يرجح أن تكون مقبرة الأئمة لصغرها بالنسبة للمجتمع التيهري، ولا يوجد في هذه المقبرة أية كتابة تبرز أنها مقبرة الأئمة، و إن كان هذا صحيحا فإنه يعطينا فكرة عن عدم اهتمام الأئمة بقبورهم و تجميلها، و هو ما كان يحدث عند بعض الأسر، خاصة الغنية منها، و مازالت الحد الآن في تلمسان و قسنطينة، و هذه الظاهرة غريبة عن الإسلام.

2- العمارة المدنية:

وتشمل عدة معالم عمرانية ومرافق عمومية، ومنها ما هو متعلق بالعمائر السكنية، مثل القصبة و الدور و القصور و الضياع، و منها ما هو متعلق بالنظافة و الصحة كالحمامات، و منها ما يتعلق بالتجارة و المنافع العامة كالحانات و الفنادق و الأسيلة و السبل و غيرها من المرافق والمنشآت الضرورية نذكر منها:

● الدور و المساكن:

تخضع مساكن بلاد المغرب الأوسط إلى عاملين يحددان طرازها و أثارها، و هما يتمثلان بالتراث المتوارث عبر الأجيال، و المستوى الحضاري الذي بلغه المسلمون في القرنين الثالث و الرابع الهجري، و هي إن اختلفت من منطقة إلى أخرى، و قد كانت بعض المنازل تبنى بالطوب، و آخر بالحجارة المنحوتة، أما سقفها فكانت من الخشب كبيت الإمام يعقوب بن أفلاح، كما كانت المنازل متلاصقة، ليكون بالإمكان إحاطتها بسور، و تشققها أزقة و شوارع تؤدي إلى الساحة العامة، و الأسواق و أبواب المدينة، و يتكون المنزل من عدة حجرات، أما بابها فمن خشب، و يتكون عادة من مصراعين يسمح بدخول الأحمال، أما أثارها فيتكون من فراش محشو بالصوف و الريش، و الحصير بحيث كان في بيت عبد الرحمن بن رستم حصير فوقه جلد، وهذا ما ذكره ابن الصغير ابن الصغير بقوله: "فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد و ليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها و سيفه و رمحه وفرسه مربوط في ناحية من داره، و كان القنديل ضروريا جدا في البيت، يضاء باستعمال الزيت كوقود له، و

كانت الدور تتألف كل منها من عدة بيوت، فقد ذكر ابن حوقل: "أن لسكان تاهرت مياه كثيرة تدخل عن أكثر دورهم"، وعلى كل حال فإن تيهرت اتسعت وتطورت حيث ذكر ابن الصغير: "واتسعوا في البلاد وتفسحوا فيها و أتتهم الوفود و الرفاق من كل الأمصار و أقاص الأقطار، ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم و ابنتى بين أظهرهم...حتى لا يرى دارا إلا قيل إنها لفلان الكوفي و هذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي..." ، وقد اكتشف جورج مارسيه ودوسوس لامار عدة مبان تتكون من عدة غرف، أخذت كلها شكلا مستطيلا مع عدم وجود الأعمدة و الدعامات، و هذا راجع إلى مادة التسقيف حيث تذكر لنا المصادر التاريخية أنه استعمل الشعراء في التغطية، و هذا ما لم يسمح للغرف بأن تكون عريضة لصغر طول خشب التسقيف، فجاءت الغرف ضيقة أعطت لها ميزة خاصة.

و على العموم كانت نوعية و طبيعة السكن تتحدد تبعا للمستوى الحضاري و حسب معيشة المجتمع، لهذا نلاحظ نوعين من المساكن في مدينة تيهرت، مساكن البادية، و مساكن المدن.

● القصور:

تعتبر القصور ظاهرة حية تعبر عن المستوى الحضاري العالي و الذي بلغته المنطقة، و هي نتيجة الثراء، نظرا لما عرفته مدينة تيهرت من رخاء اقتصادي، و خاصة في عهد الإمام أفلاح حيث تنافس الناس في البنيان، حتى أنه ابنتى الناس القصور و الضياع خارج المدينة.

وقد كان للإمام أبي بكر قصره، ولأبي اليقظان كذلك، ولكبار الشخصيات في المجتمع الرستمي قصورهم، فهذا صهر للإمام أبي بكر محمد بن عرفة القيرواني كان له قصر محاط بالبساتين والأشجار، ولمحمد بن حماد الإباضي بيت كبير على بعض أميال من العاصمة تيهرت، يقال له "المثلث" محاط بالمزارع و الأشجار و الأنهار و النخيل، و كان لأبي حاتم قصر على نهر مينة، وكانت تبني وسط البساتين وعلى ضفاف الأنهر ليضفي عليها جمالا و رونقا أكثر.

ويظهر الاهتمام و التنافس على بناء القصور من خلال ما ذكره ابن الصغير: "فابنتى أبان وحمويه القصرين المعروفين لهما بإملاق، و ابنتى عبد الواحد قصره الذي يعرف به اليوم و غيره مما

يطول ذكره، ولقد حدثني بعض من أثق به أن أبان وحمويه خرجا يوما إلى قصورهما منتزهين ومعهما جماعة إخوانهما، فذكر بعضهم أنه قال، لما أشرفنا على القصرين سبق بنا بعض عبيدهما فأعلموا ناس القصرين بقدمهما قال فتشوف من كان بالقصرين بهما، فو الله ما رأيت شرافة من القصرين إلا عليها ثوب أحمر و أصفر على الجدار كالبذور، و انتشرت القبائل و عمرت العمائر، و كثرت الأموال بأيديهم، و كانت العجم قد ابنتت القصور و نفوسة قد ابنتت العدو و الجند القادمون من افريقية قد بنت المدينة العامرة اليوم".

هذا النص يبين لنا أن تيهرت تعددت بها القصور حتى بالنسبة للعجم و للجند الوافدين إليها من افريقية، و أنها كانت لا تخلوا من المنتزهات و الحدائق و البساتين، و هو ما يوحي عن سمو في الذوق ورقة في الشعور، وقد رافق ظهور المنتزهات في تيهرت تطورها الحضاري و الاجتماعي والاقتصادي.

● الدروب:

كانت تيهرت كغيرها من مدن المغرب الإسلامي تحتوي على دروب و شوارع و ساحات عمومية أطلق عليها أسماء الفئات التي تقطنها، مثل درب النفوسيين، وعدوة نفوسة ورحبة القرويين، ولعل ما يثبت وجود هذه الدروب و الساحات وصف المقدسي لتيهت في القرن الرابع الهجري أي بعد سقوط دولة بني رستم، و بعدما فقدت تيهت جزء هام من سكانها و حضارتها حيث قال: "انتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب، يفضلونها على دمشق... و قرطبة... و من دروبها المعروفة أربعة، درب "مجانة"، درب "المعصومة"، درب "راها" درب حارة الخفير، درب البساتين.

يعتبر وصف المقدسي شاملا لتيهت رغم أنه عرف بالاختصار عندما يصف مدن المغرب الإسلامي لأنه لم يزره، بل اكتفى بما وصله من مؤلفات المشاركة أو أخبار من المغاربة الذين رحلوا للمشرق لأن النص لا يرتبط بعصره بل بالقرن الثالث الهجري الذي وصلت فيه الدولة الرستمية إلى مراحل قوتها، لكن في عصره عرفت هذه الدولة الحروب المتواصلة و تدمير منشآتها، حيث تحولت من مدينة ذات حضارة إلى ثكنة عسكرية.

وما يؤكد لنا هذا النص هو أن المدينة كانت تحاف بمجموعة من الأحياء و كل حي يحتوي على جميع المرافق و المنشآت الضرورية من ساحات و أسواق و مساجد، و ذكر ابن الصغير عن عهد أفلح : "وأمنت الساحات و كثرت الأموال".

● الفنادق والخانات:

جاء في كلام أبي زكرياء أن الرستمين شرعوا في تأسيس تيهرت و اختطوها بيوتا و قصورا و فنادق، وفيما يتعلق بالخانات، فإن ابن حوقل هو الوحيد الذي أشار إلى وجودها في تيهرت، وهي تعود إلى عهد الدولة الرستمية حيث كانت القوافل تأتيها من المشرق والمغرب و بلاد السودان الغربي والواحات الصحراوية مما يقتضي وجود خانات لإقامة هؤلاء، و هي تحتوي على غرف للسكن و مخزن للسلع وإسطبلات للمواشي، و لعل الحفريات التي ستقوم في المستقبل ستؤكد ذلك. كما يظهر وصف ابن حوقل أن مرافق تيهرت الحديثة أكثر من الأولى، فهي تحتوي على مرافق عاصمة للدولة حيث يقول: "...و التجار و التجارة بتيهرت المحدثه أكثر و لهم...بساتين كثيرة... وخانات".

● الحمامات و خزانات المياه:

يعتبر الاغتسال في الحمامات ظاهرة قديمة، عرفته الشعوب القديمة كالمصريين و الكنعانيين واليونانيين و الرومانيين، و قد وصلت هذه العادة إلى سلوك المسلمين مبكرا، لأن الإسلام يحث على الاغتسال والطهارة ، و أصبحت هذه المؤسسة الاجتماعية مرتبطة ارتباطا عضويا بالنظافة وبفريضة الوضوء، و لذا اعتبرها الفقهاء من الأماكن الدينية، لأن الطهارة لا يستغني عنها المسلمون و لا يمكنهم أداء فريضتهم إلا بها، فكان المسلمون يترددون باستمرار على الحمامات لتطهير أجسامهم وتنظيفها، و كانت الحمامات في أغلب الأحيان تلحق بالبناءات الدينية والاجتماعية بما في ذلك بيوت الله، و كانت تيهرت تحتوي على حمامات كثيرة بلغت اثني عشر حماما، و هذا ما ذكره البكري بقوله عن تيهرت: "و بتاهرت بساتين كثيرة وحمامات كثيرة يسمى منها اثنا عشر حماما وحواليها من البربر أمم كثير"، و هذا ما أكده أيضا ابن حوقل بقوله: "و لهم (سكان تيهرت) بساتين كثيرة

وحمامات"، و من خلال الحفريات تبين وجود هذه الحمامات، فمثلا حفرة سوفي التي اكتشفت مبنى في مستوى أعلى من القصبة يفترض أن يكون حماما لما له من مميزات، لكن لعدم وجود أي تقرير من الباحثة عن هذا الحمام، نكتفي بوصف سطحي له حيث يتكون من ثلاثة غرف تشكل الأولى مربعا لها أرضية مبلطة بالآجر ذو المقاسات التالية:

- السمك: 4.9 سنتيمتر - الطول: ما بين 26.5 سنتيمتر إلى 28 سنتيمتر - العرض: بين 13.5 سنتيمتر إلى 14 سنتيمتر.

و تحيط بها جدران يتراوح علوها ما بين 0.80 متر إلى 1.20 متر و من خلال مدخل بارز بعرض 0.65 متر تدخل إلى الغرفة الثانية التي تأخذ شكلا مستطيلا و به فرن أرضي غطي بحجارة كبيرة، و يحتوي هذا الفرن على أربع فتحات للتهوية يفترض أن تكون هذه الغرفة الساخنة، و في الجهة الشرقية للغرفة الساخنة يوجد هيكل مستطيل يحتوي على حوض به أرضية مغطاة بالآجر، وبجواره قناة تتجه من الجنوب إلى الشمال يعتقد أنها لصرف المياه لأنها مائلة قليلا نحو الخارج.

و ما نستنتجه أن المصادر التاريخية أكدت كلها على وفرة المياه في تيهرت، فهذا ابن حوقل مثلا يقول: "أن لسكان تاهرت مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم"، و هذا ما جعلهم يهتمون بغرس البساتين، فإن إباضيي العراق في رحلتهم الثانية إلى تيهرت وجدوا الأمور قد تبدلت والأحوال المدنية والأشياء قد حالت و ذلك أنهم نظروا إلى قصور قد بنيت و إلى بساتين قد غرست، كما أن وصف المقدسي لتيهرت: "قد أحرق بها الأنهر، و التفت بها الأشجار و غابت في البساتين ونبعت حولها الأعين"، تبين اهتمام سكان تيهرت بغرس الأشجار حول المدينة فزادت بها البساتين و هذه الظاهرة تكاد تكون عامة بالنسبة للمدن الجزائرية خلال العصور الوسطى وحتى الحديثة، فالبساتين كانت تزود تلك المدن بما تحتاج إليه من خضر و فواكه و حتى الحليب و مشتقاته لوفرة الأبقار والأغنام بتلك الضيعات و تربية النحل فالعسل كان كثيرا و سائر غلاتها كانت مباركة، و قول الإدريسي في ذلك: "و بمدينة تاهرت مياه متدفقة و عيون جارية تدخل أكثر ديارهم و يتصرفون فيها" يظهر لنا أن سكان تيهرت استفادوا من هذه المياه الكثيرة، فأوصلوها إلى دورهم و أقاموا عليها بساتين و أشجارا

عن طرق قنوات وخزانات من الفخار المطلبي، و هذا ما دلت عليه الحفريات خاصة في الجزء الموجود جنوب الطريق الوطني رقم 11 والذي يربط تيارت بمشرع الصفا، وقد عرف هذا الجزء تشويها كبيرا خاصة في الجهة الشرقية منه بسبب تشييد القرية الفلاحية، و التي دمرت آثارا و أشكالا عديدة لبنايات مغمورة تحت التراب قضت عليها أسس هذه القرية الجديدة.

ففي الجهة الغربية من القرية وجدت بقايا الخزانات التي قام فيها جورج مارسيه و دوسوس لامار بحفريتهما وهي في مجموعها خمسة خزانات، و يفترض جورج مارسيه أن لهذه الخزانات دخلات بعرض 0.18 متر تحمل حنفيات يراقب منها مستوى المياه خاصة في موسم الجفاف، إلا أن عبد القادر دحدوح نفى هذه الفرضية بقوله أن هذه البقايا لا يمكن اعتبارها خزانا و إنما حماما لعدة أسباب منها:

- لوجوده بعيدا عن أسوار القصبية و الحصن، فلو كان خزانا وضع تحسبا لأي حصار لوضع بالقرب منهما و تحت حمايتهما.

- احتواؤه على غرف عديدة و بمقاسات مختلفة مفتوحة على بعضها البعض بأبواب، وهي ميزات تفتقد منها الخزانات التي عادة ما تكون ذات تخطيط بسيط مشكل من غرفة فتحت في أحد جوانبها فتحة صغيرة تسمح بمرور الماء.

- وجود مقاعد حجرية في إحدى غرفه و كوات صماء تتخلل جدرانها و في جميع غرفه من الداخل، فلو كان خزانا لما احتاج إلى تلك المقاعد و لما احتاج إلى تلك الكوات.

- احتواؤه على موقد ما زالت آثاره ماثلة إلى اليوم، و هذه ميزة من ميزات الحمامات عبر التاريخ.

- وجود باب يؤدي إلى الخارج، و هذا ما يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي دفعت جورج مارسيه ودوسوس لامار إلى الاعتقاد بأن هذا المبنى خزان و هو مفتوح من الخارج، و هو إذن يعتبر البقايا المكتشفة تكون منها نطاق مدينة الأمير عبد القادر.

أما مواد البناء فقد استعملت الحجارة و الدبش بينما طليت الجدران بطبقة سميكة من الملاط، ونجهل ما إذا كانت هذه الخزانات مغطاة أو بقيت عارية، و نذكر أنه يجب أن تكون لها قنوات تجلب

المياه و تصرف من خلالها و هذا ما لم نعثر عليه بعد، و وجودها خارج القصبة ليس من المعهود، فقد تكون هذه الخزانات في مرحلة متقدمة حيث اتسعت المدينة و جاءت الخزانات داخل الأسوار و شأها شأن الخزانات في المدينة الإسلامية للاحتياط لأي حصار يرقب.

و قد ساعد تزويد أهل تيهرت بالمياه انحدار الأنهار من أعالي الجبال و كثرة الينابيع والعيون، و هذا ما نفهمه من قول اليعقوبي: "شرب أهل مدينة تاهرت من عيون يأتي بعضها من صحراء وبعضها من جبل قبلي يقال له جزول"، و قول البكري: "و هي في سطح جبلي يقال له جزول...وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة تسمى مينة و نهر آخر يجري من عيون تتجمع تسمى تاتش، و من تاتش شرب أهلها وبساتينها".

• الأسواق:

ذكر البكري: "و بتاهرت أسواق عامرة"، و في موضع آخر قال: "لها قصبة مشرفة على السوق"، إلا أن المقديسي يضيف لنا شيئا جديدا لهذه المظاهر العمرانية تتمثل في تحديد موقع الأسواق حيث ذكر: "بها (أي تيهرت) جامعان على ثلثي البلد...قريبان من الأسواق"، أي أن الأسواق قريبة من أماكن العبادة أي المساجد، و هذا ما نلاحظه أيضا أغلب المدن الإسلامية وأحسن مثال على ذلك تلمسان و قسنطينة وفاس و تونس.

ولقد كثرت الأسواق في تيهرت إلى درجة أن أطلقت أسماء بعض منها على الأشخاص حيث ذكر ابن الصغير سوق ابن وردة، و كذا بعض المدن التي نسبت إلى تيهرت مثل سوق ابن جبلة و سوق كربي و سوق ابراهيم، و عن مدينة غزة يقول الإدريسي: "هي مدينة صغيرة القدر فيها أسواق مشهورة لها يوم معلوم"، و ذكر أيضا ابن حوقل بمثل هذا و قال: "هي مدينة صالحة"، و نفهم من هذا أنه كان لكل حي أو منطقة سوق خاص بها يسمى باسمها أو اسم شخص أو حتى باسم اليوم الذي تقام فيه السوق.

3- العمارة الحربية:

تشمل الأسوار و الأبراج و القلاع و الحصون و القصبات، و لعل من أهمها في تيهرت:

• الأسوار و الأبراج:

تخطيط الأسوار و الأبراج بالمدينة عموما و تدور حولها من جميع الجهات، و هي التي تفصلها عن البادية و الحقول الزراعية و تحميها من الغزاة.

إن الدولة الرستمية رغم أنها حددت مسارها باتجاه المسلمة و حسن الجوارلكن هذا لا يعني أنها أهملت كلية تحصين مدينتها من الغزاة و تقوية ملكها و أمنها بالسلاح و الجيش، فقد أثار ابن الصغير مثلا الإمام عبد الرحمن أمر أن يجعل من معونة إباضية المشرق ثلثا في الكراع و ثلثا في السلاح... و اشتروا للقوم الكراع و السلاح و قوي الضعيف... و خافهم جميع من اتصل به خبرهم، و أمنوا ممن كان يغزوهم من عدوهم و رأوا أنهم قادرون على غيرهم و من كانوا يخافون أن يغزوهم...".

لقد كانت تيهرت العاصمة السياسية و الإدارية و كانت في نفس الوقت قاعدة عسكرية محصنة بسور من حجر ذات قسبة محكمة التحصين قادرة على أن تصمد لكل هجوم يأتيها من الخارج.

لقد كانت حاجة المدن إلى بناء الأسوار ضرورية، يهتمون وراءها من الهجمات و اعتلوا الأبراج بحيث كانوا يرشقون منهم عدوهم، و لهذا وجب إحاطة كل مدينة تبرز إلى الوجود بسور، و رغم أن اليعقوبي يصف تيهرت دون أن يشير إلى إحاطتها بسور، و ابن حوقل أيضا رغم إشارته لتيهert القديمة بأنها ذات سور فإنه لا يشير إلى محل وجود السور في تيهert المحدثه، لكن ابن الصغير بإشارته إلى أبواب تيهert يدل ذلك على أنها كانت محاطة بسور، و هذا ما ذكره البكري: "مدينة تيهert مسورة و لها أربعة أبواب"، و قال صاحب الاستبصار: "مدينة تاهرت وهي مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر (أي حجر) و لها قسبة منيعة" و يحتمل أن يكون قد بني من لبن و طين تأثرا بالفن المعماري القروي.

وقد كشفت حفريات جورج مارسيه و دوسوس لامار عن الأسوار والأبراج وهو ما لاحظته في الجزء المهم الذي به أكثر الآثار إذ به شكل مستطيل طوله 1100 متر و عرضه 400 متر يتكون

من سور يحيط به من كل الجهات و بني بالحجارة المطروقة في صفوف مستقيمة و يتخلل السور من الداخل أكوام من الأحجار تبين استمراره و يعلوه انتفاخ في نقاط عديدة متساوية الأبعاد، يعتقد أنه مكان أبراج ثانوية مكونة للسور، أما في الزاوية الشرقية من السور فتظهر كومة من الأحجار المتراسة على شكل مستطيل قد تكون الجزء السفلي للبرج الرئيسي، و في الركن الغربي أيضا مبنى من الأحجار غير منتظمة في شكل مربع تقريبا قد يكون هو الآخر البرج الرئيسي الثاني.

لهذا يجب إجراء حفريات منتظمة للكشف عن قواعد و أسرار هذه الأسوار و الأبراج وإلى

ذلك الحين تبقى هذه مجرد افتراضات فقط.

● القصة:

وهي الحى الذي يسكنه الأمير أو الإمام أو السلطان و أسرته و حاشيته و جنده، مكونة من مباني مخصصة لهذه الطبقة الاجتماعية التي تنصدر الهرم الاجتماعي في المدينة و ترتب عليه و لها أبواب خاصة بها، و قد ذكر المقديسي أن "تاهرت هي اسم لقصبة، هي بلخ المغرب"، و ذكر البكري أن "تاهرت قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة"، و قال صاحب الاستبصار: "مدينة تاهرت مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور و لها قصبة منيعة تسمى المعصومة"، و شرح سليمان الباروني قول أبي اسحاق الفارسي عن تيهرت: "و مدينة كورة اسمها تاهرت و هي مدينة كبيرة"، بأن الكورة هي اسم لكل صقع أي ناحية تشمل على عدة قرى، ولها قصبة أي مدينة ينسب ذلك الصقع كله إليها كما هنا، و ما نستنتجه من قول المقدسي و شرح سليمان الباروني لقول أبي اسحاق الفارسي أن مدينة تيهرت هي نفسها القصبة وتضم عدة أحياء و قرى، و ليس كما نعرفه أن القصبة هي جزء من المدينة أو كما عرفها عبد العزيز فيلاي.

و ما ورد لدى هؤلاء أكدته حفريات الأثريين جورج مارسيه و دوسوس لامار حيث اكتشفا سور المدينة الذي كان محاطا بهيكل مستطيل الشكل اعتقدا أن يكون هذا المستطيل هو القصبة، أو بعبارة أخرى أول تمركز للمدينة في مرحلتها الأولى دون التوسعات التي عرفتها في الفترات اللاحقة خاصة فترة أفلاح بن عبد الوهاب حيث بنيت القصور و اتسعت البلاد، و من مميزاتا أنها بنيت

بأحجار مطروقة مستوية، وتحتل شكلا مستطيلا يصل طوله إلى 100 متر تقريبا و عرضه إلى 33.65 مترا من خلال تقرير الباحثين جورج مارسيه و دوسوس لامار.

و رغم عدم ظهور الأسوار التي تحيط بالقصبة، توصل الباحثان إلى وضع فرضية للمدخل الرئيسي في الجهة الشمالية الشرقية، و هو عبارة عن ممر على جانبيه مقاعد حجرية، و يؤدي المدخل مباشرة إلى ساحة في الوسط طولها 53.20 مترا و عرضها 22 مترا يحدها من الجوانب الأربعة غرف تختلف مقاساتها و اتجاهاتها من غرفة إلى أخرى، و على يسار المدخل مباشرة في الجهة الشمالية الشرقية غرفتان عريضتان خصصتا للاستقبال، و من الجهة الجنوبية الشرقية حوالي خمسة غرف، غرفة بها مدخلان يعتقد أن تكون غرفة الحرس أو الإسطبل، و تحتل أيضا الجهة الجنوبية الغربية غرف يصل عمق الواحدة منها 4.50 مترا و عرض يتراوح ما بين 2 متر إلى 2.50 متر، و قد عشر في غرفة على فحم اعتبرها الباحثان مطبخا، والغرف المجاورة لها ملحقات، و في الجهة الشمالية الغربية غرف طويلة عمقها 20 مترا و عرضها 2.75 مترا يعتقد أن تكون مخصصة للتخزين يقطعها ممران بهما سلام، مما يؤكد وجود طابق علوي للقصبة يحتمل أن يكون على نفس تخطيط الطابق الأرضي، أما مواد البناء المستعملة، فقد غطيت أرضيت الغرفة بالآجر و طلاء من الجير، أما الجدران فطلبت بطلاء أملس، أو استعملت في هذه القصبة تقنيتان للبناء، الأولى عبارة عن أحجار مختلفة الأحجام تتخللها أحجار صغيرة وفي اتجاهات مختلفة، أما الطريقة الثانية فهي عبارة عن أحجار متساوية ومطروقة بطريقة متقنة، و يرى الباحثان أن هذه القصبة لها نفس تخطيط القصور الأموية باتخاذها فناء كبيرا و غرفا طويلة على الجانبين و كذا المدخل الرئيسي بمقاعد الحجرية، نذكر أن الوصف الذي قدمه الباحثان و المخطط الذي وضعوه لا نجد له أثرا في الموقع سوى بعض البقايا، لما عرفته من تدهور و تدمير أفقدها معالمها الأساسية.

لكن اليعقوبي و ابن الصغير لم يشيرا إلى وجود قصبة في تيهرت مع أنهما ذكرا عددا من القلاع والحصون سنذكرها لاحقا، وهذا يجعلنا نستنتج أن ما اكتشفه الأثريان جورج مارسيه ودوسوس لامار يرجع إلى فترات متأخرة من العهد الرستمي، وهذا ما لاحظته أيضا موسى لقبال،

حيث رأى أن بعض المنشآت التي ورد ذكرها عند الجغرافيين و الرحالة العرب كقلعة المعصومة قد ظهرت في فترات متأخرة في العهد الرستمي، و ربما في العهد الفاطمي.

● أبواب المدينة:

لقد جرت العادة عند المسلمين أن يؤسسوا أبوابا في اتجاه المدن الكبيرة سواء داخل البلاد أو خارجها، ويسمونها في بعض الأحيان بأسماء هذه المدن مثل باب فاس في تلمسان.

أما بخصوص مدينة تيهرت، فقد أشار ابن الصغير إلى وجود أبواب المدينة، فنذكر باب الصفا بقوله عند دخول وفد البصرة تيهرت: "حتى دخلوا من الباب المعروف بباب الصفا... حتى وقفوا عليها و أصابوا عند بابها"، و أضاف "أن يعقوب بن أفلح أمر بأبواب المدينة فغلقت إلا بابا واحدا"، و يضيف البكري إلى باب الصفا أبوابا أخرى بقوله: "مدينة تاهرت لها أربعة أبواب، باب الصفا و باب المنازل و باب الأندلس و باب المطاحن".

ويشرح سليمان الباروني شرحا وافيا و باستحسان لأسماء هذه الأبواب بقوله: "ما ألطف هذه الأسماء و ما أحسن هذا التقسيم المحكم الذي لم يدع للازدحام مجالا، إذ خصص لكل شغل من هذه الأسماء الأربعة التي عليها مدار حركات الناس بابا، فالذين ينقلون أنواع الحبوب لأجل الطحن لهم باب المطاحن و الذين يريدون السفر أو عبور البحر إلى الأندلس من التجار و غيرهم لهم باب الأندلس، والمشتغلون بالعمل في البساتين لهم باب المنازل، والذين يريدون النزهة والرياضة البدنية وتسلية النفس لهم باب الصفا، و بهذا يعلم ما كان في هذه المدينة من حسن الانتظام والترتيب"، ولا يستبعد أن هذه الأبواب الرئيسية كانت مصفحة بالحديد و لها مصاريع حديدية تغلق بها، و هذا نستشفه من قول ابن الصغير عن الإمام أفلح بن عبد الوهاب: "وابتنى القصور واتخذ بابا من حديد".

و يحدد أحمد سليمان موقع هذه الأبواب على الشكل التالي:

- باب الصفا من الجهة الشرقية.

- باب المطاحن من الجهة الغربية.

- باب الأندلس في شمال المدينة.

باب المنازل في جنوب المدينة و تستعمله القوافل القادمة من الصحراء.

• الحصون و القلاع:

دعت الضرورة الدفاعية إلى ظهور عدد من الحصون، و قد كانت منتشرة في أرجاء المغرب الأوسط، يلتجئون إليها حالة تعرضهم لهجوم خارجي، و بالتالي انتشرت حول تيهرت، و قد أشار ابن الصغير إلى ذلك، فذكر حصن لواتة، وكان للرستمين حصنهم ب"نمليت" في طرف لواتة، يقع على نهر مينة، فيه مواشيههم و عبيدهم.

كما ذكر كل من اليعقوبي و ابن الصغير عددا من الحصون و القلاع المحيطة بها مثل اسكدال و تسلونت، حيث ورد في قول ابن الصغير أن: "محمود بن الوليد (ثائر بتيهرت) قد صعد إلى أعلى موضع بالمدينة يعرف بالكنيسة"، و قال أيضا أن أبا اليقظان: "أتى الظاهر المشرف على المدينة المعروفة بقلعة نفوسة"، وكان هناك أيضا حصن تالغمت خارج المدينة، و قد كانت الحاجة الملحة إليها خاصة أثناء الفتن التي شهدتها عهد الإمام أبي بكر.

ومن القلاع المنتشرة في المغرب الأوسط، نذكر قلعة "ابن هرب" و قلعة "مغيلة" و منها حصن "برقجانة"، المعروف بتيهرت القديمة.

و هكذا نستنتج أن الأئمة الرستمين و حكماء تيهرت اتخذوا القصور البديعة لسكناهم وأسسوا دولة شاملة و كافية بنيت دعائمها على البر و الإسلام و عملت على نشره و تعميم مظاهر الرفاهية والرخاء، فوسعت نطاق التجارة مع كل البلاد، و أقبل البربر و المسلمون على خدمة الأرض، فأصبحت مملكة تيهرت حديقة غناء فيها من كل فاكهة زوجان.

نستنتج من خلال عرضنا للمظاهر العمرانية أن اتساع دائرة تيهرت و عظم ملكها ودخول عدة مدن تحت طاعتها و ولائها، فقد كانت تيهرت شمالها و جنوبها و شرقها و غربها محفوفة بمدن كثيرة متحضرة و راقية، مما جعل المؤرخين و الرحالة ينسبون عدة مدن إليها و يتبعونها لها، و من هؤلاء، المقدسي الذي يذكر أهم هذه المدن فيقول: "ويقرب تيهرت مدينة تسمى رها، و قد خربت، و تنس مسورة عن البحر، شربهم من نهر، و قصر الفلوس و تيهرت السفلى أي القديمة على واد عظيم

ذات أعين و بساتين، و افكان مسورة على واد جار ذات بساتين، و يلل و جبل توجان على ما ذكرنا سواء مسورة مما يدل على رقيها ذات بساتين، و هو دليل على حضارتها وعمرانها، ووهران بحرية مسورة يقلعون منها إلى الأندلس في يوم وليلة، ترى منها البرين، وهي أحد المقابر المشهورة، و جبل زلاغ مدينة على جبل عال يطل على كورة فاس، بناها خلوف بن أحمد المعتلي وبقية المدن أكثر من مسورات ذات بساتين".

وهذا سليمان الباروني ينقل لنا نصا عن البشاري الحرثي ينسب ما يقارب أربعين مدينة لتيهت بقوله: "و لتيهت يممة، تاغليسة، قاعة ابن الهرب، خراة، جعابة، غدير، الدروع، لماية، منداي، سوق ابراهيم، رهباية، البطحة، الزيتونة، تمما، يعود، الخضراء، واريفن، تنس، قصر الفلوس، بحرية، سوق كري، منحصة، أوزكي، تبرين، سوق بن مبلول، ربا، تاويلت أبي مغلول، تمزيت، تاويلت لغو، أفكان (و بها نهر يأتي إلى تيهت)".

ومن خلال هذين النصين نستنتج بعض المدن التي نسبت إلى تيهت ومنها مثلا مدينة إفكان التي يؤكد كل من الإدريسي و ابن حوقل على أنها كانت تابعة لتيهت ومدن أخرى كتنس وشلف وحتى وهران.

ملاحظة: يتم التركيز في المراجعة على: 1- في محور: أثر الحروب

والآفات والهجرات... على مدينة تلمسان في العهد الزياني .

2- وفي محور: العمران والديمغرافية... على نموذج مدينة تيهت في

العهد الرستمي...

بالتوفيق للجميع وعطلة سعيدة طيبة...

